الصراع الروسى ــ العثمانى
وأثــره
فى الوطن العربى

دكتور فؤاد المرسى خاطر

يعد بطرس الأكبر من أعظم القياصرة الروس وحين تولى بطرس (١٦٨٢ ــ ١٧٢٥) عرش روسيا كان الشــعب الروسى لا يزال فى حقيقته شعبا آسيويا وكانت روسيا شاسعة المساحة تشمل الســهل الكبير بين البحر الأبيض الروسى فى الشمال وبحر قزوين فى الجنوب وتمتد عبر جبال أورال فى آسيا الشمالية ، وكان الروس يقيمون نوعا من السيطرة غير الحازمة على سكان سيبريا نتيجة للزحــف الروسى تجاه الشرق • أما جهة الغرب فقد حال دون توسعهم وجود بولنــدا والسويد ، وكانت الأخيرة تغلق بحر البلطيق فى وجه الروس • وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر على جميع الأراضى المحيطة بالبحر الأسود فى الجنوب • وهذا يعنى أن روســيا كانت محاصرة لا يكاد يوجد بينها وبين البحار العالمية المفتوحة سوى البحر الأبيض الروسى وهو يتجمد معظم شهور السنة •

وهذه الصفة البرية لروسيا تفسر تأخرها فى الاتصــال بأوربا وحضارتها كما أن هذه العزلة الطويلة هى المسئولة عن ذلك النوع من

الحكم الذى عرفته روسيا ولم تعرفه أوروبا والذى كان مزيجا من الاتوقراطية البيزنطية والتقاليد المغولية[1] .

لقد كانت روسيا بحاجة الى طرق للمواصلات البحرية لكى تتطور بصورة طبيعية وكان بطرس الأكبر يقول « أن روسيا بحاجة الى البحر » الا أن تركيا كانت تسيطر عندئذ على البحر الأسود ، والسويد القوية كانت تسيطر على بحر البلطيق واحتل السويديون فى بداية القرن السابع عشر الأراضى الروسية فى حوض البلطيق فكان البحر قريبا ولكن الوصول اليه متعذرا[2] . وكان على بطرس الكبير أن يتغلب على هذه الصعاب وكان بين أهم أهداف السياسة الروسية فى عهد بطرس الكبير : فتح الطريق أمام روسيا الى الغرب مباشرة وذلك بتثبيت النفوذ الروسى على بحر البلطيق والبحر الأسود وهو ما سيؤدى الى بدء الصراع مع العثمانيين .

(١)

الصراع بين روسيا والدولة العثمانية حتى نهاية القرن الثامن عشر

بدأ بطرس الأكبر بوضع سياسته موضع التنفيذ فى عام ١٦٩٥ منتهزا فرصة اشتباك « ليوبولد » امبراطور النمسا ـ المجر فى حرب مع العثمانيين .

وكانت الامبراطورية العثمانية مع بداية القرن الثامن عشر تعانى من التدهور فبينما كانت الأسلحة والفنون الحربية تتطور فى أوروبا بشكل سريع نتيجة لتطور الصناعة ظل الجيش العثمانى على حاله

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، محمد أنيس (الدكتوران) : أوروبا فى العصور الحديثة ج ١ ط ١ (انجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦١) ص ٢٦٠ .

(٢) بيفانوف ، فيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفيتى ـ ترجمة خيرى الضامن ، نقولا طويل (دار التقدم ـ موسكو) ص ١٩٩ .

التى كان عليها خلال القـــرنين الرابع عشر والخـــامس عشر وانتقلت الامبراطورية من الانتصارات الى الاندحار ومن الهجوم الى الدفاع وبدأت تفقد بعض أجزائها[٣] • وأسرع بطرس بشن الحرب عـــلى العثمانين واحتل ميناء « آزوف » على البحر الأسود واضطرت الدولة العثمانية للاعتراف له بذلك فى معاهدة كرلوفيا (كرلوفتز) عام ١٦٩٩ • ثم تطلع لفتح منفذ لبلاده على البلطيق لأن ثغر آزوف كان قليـــل القيمة طالما الدردنيل مفتاح الطريق الى البحر المتوسط فى قبضـــة العثمانيين • وكان لا مفر من الاصطدام فى تحركه نحو البلطيـــــق بدولة الســـــويد •

ودخلت روسيا فى حربين مع السويد خسرت الأولى فى عام ١٧٠٠ ولكنها انتصرت فى الثانية فى عام ١٧٠٩ فى موقعـــة « بولتـــافا » حيث فر شارل ملك السويد مع مجموعة صغيرة من قواته الى تركيا • واستقبل السلطان العثمانى (أحمد الثالث) الملك السويدى الهارب استقبالا طيبا ومنحه مكانا على نهر الدنيستر ليتخذه مقرا لاقامتـــه واستمر فيه خمس سنوات صرف همه فيها فى تحريض الســـلطان على اعلان الحرب على الروس حتى يشغلهم ويعود هو الى الســـويد ليسترد نفوذه ويستأنف الحرب ضد روسيا •• وسر شارل عندما نشبت الحرب بين روسيا ــ وتركيا عام ١٧١١ وقد حاول الروس نقل الحرب الى الأراضى العثمانيـــة فوقع الجيش الروسى فى حصار كاد ينتهى بتسليمه لولا القائد التركى الذى يسر له امكانية الافلات مقـــابل استرداد « آزوف » ورشوة كبيرة تقاضاها لنفسه • وتم توقيع اتفاقية بين روسيا وتركيا فى يوليو (تموز) عام ١٧١١ أملت فيها تركيـــا شروطها على روسيا بواسطة الممثل التركى عنـــد نهر « بروت » Pruth وقد وضعت هذه الاتفاقية أساس السلام الذى وقع فى

---

(٣) لوتسكى : تاريخ الأقطار العربية الحديث (ترجمة دار التقـــدم موسكو ١٩٧١) ص ٣٢ •

« أدرنة » فى ٢٢ يوليو (تموز) ١٧١٣ وعادت آزوف لتركيا وتم هدم القلاع التى بنيت قرب نهر سامرا Samara وسلمت مواقعها وذخائرها للاتراك(٤) .

وحققت بذلك تركيا نصرا واضحا على الروس . ولما فشل شارل فى حرب السويد مع النرويج عام ١٧١٨ تنازلت السويد عن الأراضى التى كانت تطالب بها الدول المجاورة ، وفازت روسيا منها بنصيب الأسد فى معاهدة نيستاد Nystad فى عام ١٧٢١ حيث حصلت على « انجمرلاند » وكاريلينا واستونيا ولتوانيا وعموما على كل الممتلكات السويدية على ساحل البلطيق الشرقى باستثناء فنلندا . وهذا يعنى أن روسيا ستتمكن من القنوع أكثر للتحرك ضد العثمانيين. واستمر بطرس حتى آخر أيامه يؤكد على سير روسيا فى تيار الحضارة الأوربية . وعملت كاترين الثانية على مواصلة خطة بطرس الكبير لمد حدود روسيا ناحية الغرب فى أوروبا ولكن كاترين واجهت فى سبيل تحقيق أهدافها كلا من بولندا والامبراطورية العثمانية وان كانتا لم تشكلا عائقا كبيرا : فبولندا كانت تعانى من فوضى داخلية والامبراطورية العثمانية كانت تجتاز بداية الانهيار .. وفيما يخص بولندا فانه بعد مفاوضات طويلة بين برلين وبطرسبرج وفيينا وقعت معاهدة عام ١٧٧٢ لتقسيم الأراضى البولندية وهو التقسيم الأول لبولندا نالت بموجبه روسيا الأراضى التى تقع شرق نهر الرون والدنيبر الأعلى وهى منطقة روسيا البيضاء .

كان نجاح كاترين الثانية فى بولندا قد شجعها على مضاعفة جهودها

---

(4) Hurewitz, J. C, Diplomaey in the Near and Middle East Vol. I (New York 1972) p. 39.

ولمزيد من التفاصيل عن مخططات بطرس الكبير ضد الدولة العثمانية والصراع بين الدولتين فى عهده . انظر :

Sumner, B. H, Peter The Great and the Ottoman Empire. pp. 21 — 23, p.i 27.

ضد الاتراك ففى حربين الأولى من ١٧٦٨ــ١٧٧٤ ، والثانية من ١٧٨٧ــ ١٧٩٢ نجحت كاترين فى تحطيم الستار الذى كانت الدولة العثمانية تنصبه حول البحر الأسود فقد ترتب على الحرب الأولى بسط النفوذ الروسى على طول بحر آزوف وفى شبه جزيرة القرم(٥) • وبدأت روسيا تمد نشاطها الى الوطن العربى •

وتجدر الاشارة هنا الى أن الجزائر تعاونت مع الدولة العثمانية فى الحرب الأولى فقدمت لها معونات بحرية ذات شأن كبير واشتبك الاسطول الجزائرى ــ وكان قويا ــ مع الاسطول الروسى الذى دخل البحر الأبيض المتوسط رغم تهديد البريطانيين بضرب الجزائر •

ومن ناحية أخرى فان روسيا بدأت فى هذه الفترة تستغل الحركات التى ظهرت ضد الدولة العثمانية فى الشرق العربى فعندما خرج الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا على الدولة وتحالف مع على بك الكبير الذى انفرد بحكم مصر عام ١٧٦٩ وقرر قطع علاقاته مع الدولة عام ١٧٧٠ استغلت روسيا خروج الرجلين على الدولة خاصة وان على بك الكبير أراد أن ينال مساعدة روسيا ، وكان الاسطول الروسى مرابطا وقتذاك فى الارخبيل تحت قيادة « الكونت أورلوف » وعندما تم تدمير الاسطول التركى فى موقعة « جشمة » الشهيرة فى ٢٥ ، ٢٦ يوليو (حزيران) عام ١٧٧٠ أحكم الروس سيطرتهم على البحر واستولوا على بعض جزر الارخبيل مساندين بذلك المتمردين اليونانيين بشكل فعال • وفى عام ١٧٧١ وصل مبعوثون خاصون من جانب على بك الكبير الى مقر قيادة « أورلوف » فى جزيرة « باروس » حيث تم الاتفاق بين الجانبين على العمل المشترك ضد العثمانيين •

وقد أفلحت خطة على بك فى بادىء الأمر • اذ شرع المصريون بمساندة قوات الشيخ ظاهر العمر بشن حملة كبيرة على سوريا عام

---

(٥) شكرى ، أنيس : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

١٧٧١ ، واستولوا على دمشق وصيدا وحاصروا يافا • لكن خيانة أبى الذهب لعلى بك أدت الى فشله وهروبه الى عكا • وانضم يوسف الشهابى ، أمير لبنان الى جانب الاتراك ، فحاصروا صيدا معا • وفى ذات الوقت قدم الى سواحل الشام وفقا لطلب الحلفاء ، الاسطول الروسى واستولى على بيروت فى مايو (آيار) ١٧٧٢ • ولكن الروس غادروا سواحل الشام بعد عقد هدنة مع الاتراك فى خريف نفس العام وعادت الشام للاتراك من جديد لكن الروس رغم الهدنة لم يتوقفوا عن تقديم العون لعلى بك الذى أراد أن يضرب المتمردين عليه من المماليك فأرسل الكونت أورلوف • وفدا برئاسة الملازم بليشبييف ، الى على بك • قدم له كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر • وشرع على بك فى عام ١٧٧٣ بمحاربة المتمردين ، معتمدا على جيشه الذى أعاد تنظيمه ومع ذلك فقد حلت به الهزيمة فى معركة قرب الصالحية شرقى الدلتا بمصر وأصيب على بك بجرح خطير وأخذ أسيرا الى القاهرة حيث توفى بعد قليل • فأصبح الشيخ ظاهر العمر فى وضع حرج •

غير أن الهدنة الروسية ــ التركية التى انتهت فى يونيو (حزيران) عام ١٧٧٣ جعلت روسيا ترسل الى سواحل الشام قسطا من اسطولها مرة أخرى بقيادة « كوجوخوف » وقطع يوسف الشهابى علاقاته بالاتراك وعقد تحالف مع الروس والشيخ ظاهر العمر • وبعد حصار استمر ثلاثة أشهر استولى الروس على بيروت مرة أخرى •

وفى أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٧٧٣ قدم يوسف الشهابى طلبا الى الامبراطورة الروسية لتجعله تابعا لروسيا وأن تضع لبنان تحت الحماية الروسية • ولكن كاترين الثانية رفضت هذا الطلب بعد أن تم توقيع اتفاقية صلح « كوتشك قينارجة » بين الروس والاتراك فى عام ١٧٧٤ ، وغادر الاسطول الروسى سواحل الشام • وترك ظاهر العمر يواجه مصيره حيث وجه الاتراك قواتهم ضده وانتهى الأمر

بمقتله والاستيلاء على عكا التى أصبحت مقرا لاحمد الجزار[٦] .

وواضح أن روسيا كانت تساند الخارجين على الدولة العثمانية لتحقيق مصالحها وللضغط على الدولة وعندما وقعت اتفاقية مع الدولة نالت بها كثيرا من المكاسب تخلت عن الذين كانت تساندهم دون تردد . فبمقتضى هذه الاتفاقية استحوذ الروس على الاجزاء الشمالية الشرقية من البحر الأسود ، كما أعلنت استقلال خانات القـــرم عن الدولة العثمانية ، واكتسبت روسيا بمقتضى المعاهدة حقوقا تجارية وبحرية وأصبح من حقها انشاء قنصليات فى ممتلكات الدولة وأصبح لرعاياها حق التجارة فى أملاك هذه الدولة ، كما فتحت لسفنها حرية المـــلاحة فى أوقات السلم فى البحر الأسود وعبر المضايق التركية ، وأعطيت روسيا حق اقامة كنيسة ارثوذكسية فى استانبول على رأسها أساقفة روس ، وأصبح من حق رعايا روسيا الحج الى الأراضى المقدســة المسيحية — ومن الناحية السياسية كان لروسيا حق حماية المسيحيين فى ولاشيا ومولدافيا[٧] .

وهذا يعنى أن الدولة العثمانية قد فقدت انفرادها بالسيطرة فى البحر الاسود ومهدت الاتفاقية الطريق لضم روسيا لخانات التتر ، كما أصبح فى امكان الروس التدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية المسيحيين الارثوذكس .

ومنذ توقيع اتفاقية كوتشيك قينارجة تحددت الخطوط التى أضحى بامكان روسيا بواسطتها الزحف على الدولة العثمانية وهى : رابطـــة الشعوب السلافية وعلى رأسها روسيا للعمل على اثارة المتاعب للدولة

---

(٦) لوتسكى : المرجع السابق ص ٣٨—٣٩ .

(٧) انظر النص فى : Hurewitz, op. cit., pp. 54 — 61.

(٨) محمد أنيس ، رجب حراز (الدكتوران) : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر (دار النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٧) ص ٧٤—٧٥ .

فى البلقان العثمانية ، وجنوب شرقى أوروبا ، والارثوذكسية التى تدعى روسيا لنفسها حق حمايتها ورعايتها ،وأخيرا العدوان المسلح وسلخ ممتلكات الدولة[٨] .

وظهرت أصابع روسيا من جديد ضد الدولة فى مصر بعد أن استأثر مراد بك وابراهيم بك بالسلطة فيها فقد ترامت الأنباء الى الدولة العثمانية بأن هذين الاميرين يجدان تشجيعا من روسيا فى سياستهما تمهيدا لفصل مصر عن الدولة العثمانية . وكانت روسيا قد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التى أتيحت لها على عهد على بك الكبير .

وقد زاد اهتمام روسيا بمصر بعد وفاة على بك الكبير وعينت قنصلا لها فى الاسكندرية وعهدت اليه بعرض المساعدات العسكرية على ابراهيم بك ومراد بك وأن يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر فى أى حركة استقلالية عن الدولة . ولكن يبدو أن الاضطراب الداخلى فى مصر فى تلك الحقبة لم يساعد على الدخول فى تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا . ولكن ابراهيم بك استقدم عددا وافرا من المماليك من روسيا[٩] . أما ما ترتب على الحرب الروسية التركية الثانية (١٧٨٧ — ١٧٩٢) فهو امتداد نفوذ روسيا غربا على طول البحر الأسود حتى نهاية « الدنيستر » وكنات كاترين الثانية تحلم بالاستيلاء على (القسطنطينية) نفسها . وحين ماتت كاترين الثانية كانت روسيا قد اندمجت فى النظام الدولى الاوروبى وأصبحت احدى الدول الكبرى فيه .

---

(٩) عبد العزيز الشناوى (الدكتور) عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية (أعلام العرب العدد ٦٧ — دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧) ص ١٨ .

(٢)

تصاعد الصراع الروسى العثمانى فى القرن التاسع عشر

اتخذت المسألة الشرقية فى أواخر القرن الثامن عشر شكلها الحديث وحكمتها عوامل ثلاثة هى : ضعف الدولة العثمانية المتزايد وظهور عدد من القوميات الصغيرة فى البلقان وأثر هذان العاملان على سياسة الدول الكبرى — فقد تعرضت الدولة العثمانية فى السنوات ما بين ١٧٨٨ ، ١٧٩١ لهجوم روسى — نمسوى مشترك ، وتقدمت روسيا — التى ما برحت تؤكد أنها حامية للمسيحيين الارثوذكس فى الامبراطورية — حتى وصلت ميناء « أوجزاكوف Ogzakov » على البحر الاسود •

وهكذا بدأت روسيا مع مطلع القرن التاسع عشر تتسلل الى جنوب البحر الأسود وكانت تتطلع على الدوام الى القسطنطينية باعتبارها الهدف النهائى • وكانت المتاعب تنشأ غالبا بقيام محاولات من جانب قوميات البلقان الصغيرة لتؤكد استقلالها عن تركيا ، فلا تلبث الدول الكبرى أن تتدخل على أثرها لتحسين أوضاع هذه القوميات وتنظيمها • وكانت روسيا بين هذه الدول بشكل خاص تسعى الى التعجيل بانهيار الدولة العثمانية — وقد أسفر الموقف فى القرن التاسع عشر عن ثورات متعددة من جانب الرعايا الاتراك فى البلقان ضد السلطان وثلاث حروب روسية تركية •

وبدأت الثورة تندلع فى البلقان من العربيين ، اذ بدأت ثورتهم فى عام ١٨٠٤ بزعامة قرة (الاسود) جورج بعد ثمانية أعوام من الثورة تمكن قرة جورج من تدعيم مركزه فحصل فى المعاهدة الروسية التركية عام ١٨١٣ على وعد بالاستقلال الذاتى لبلاده • على أنه لم يلبث أن هزم فى عام ١٨١٣ وفر من البلاد • وفى عام ١٨١٥ أشعل « ميلوس

أوبرينوفيتشى » ثورة أخرى تنجح فى تأكيد استقلال الصرب الفعلى (de Faeto) وتمكن بعد جهد ووقت من الحصول على دستور والاعتراف به أميرا للصرب[١٠] • وساعدت روسيا الثورة فى اليونان ضد الدولة العثمانية فى عشرينات القرن التاسع عشر وكان اليونانيون قد كونوا عام ١٨١٤ منظمة سرية اسمها « فيليكى هيتريا » أى اتحاد الاصدقاء وكان مركزها فى « أوديسا » ويرأسها ضابط كبير فى الخدمة الروسية هو « اسكندر ايبسيلانتى » • وفى ٦ مارس (آذار) ١٨٤١ عبر ايبسلانتى على رأس مفرزة يونانية صغيرة كونت على الأراضى الروسية — نهربروت ودخل الأراضى الخاضعة للسلطان العثمانى من ولايات الدانوب • وكان يأمل فى اثارة السكان ضد السلطان لكنه هزم • ورغم ذلك فان حملته كانت اشارة البدء لانتفاضة اليونانيين التى انتهت بهزيمة جيش الانكشارية وأجلته عن المورة نهاية عام ١٨٢١ •

وقد جرت مصر الى هذه الأحداث وتمثل ذلك فى استنجاد السلطان العثمانى محمود الثانى بمحمد على بعد أن ولاه المورة واستجاب محمد على وأرسل جيشا الى المورة بقيادة ابراهيم باشا حيث تمكن من الاستيلاء على اثينا فى الخامس من يونيو (حزيران) عام ١٨٢٧ •

وهنا أسرعت الدول الأوروبية للتدخل وكانت روسيا فى المقدمة وكانت سياستها قد تغيرت منذ عام ١٨٢٥ بتسلم « نيقولان الأول » العرش ومالت الى مساندة أكثر فعالية لليونانيين • وترتب على هذا أن سارعت بريطانيا — لعدم رغبتها فى انفراد روسيا بالتدخل — الى الاتفاق مع روسيا على القيام بعمل مشترك فى اليونان •

---

(10) Grant. A. J, Temperly, H : Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries (London 1944) pp. 257 — 258.

وفى ٤ ابريل (نيسان) ١٨٢٦ وقع نسلرودة وولنجتون فى بطرسبورج البروتوكول البريطانى الروسى بشأن التدخل فى الشئون اليونانية وقررت فيه الدولتان أن تحصل اليونان على الاستقلال الذاتى وتبقى شكليا فى نطاق الدولة العثمانية • وكان فى نية الدولتين فى الواقع بسط حمايتهما الخاصة عليها •

ورفض السلطان العثمانى جميع المطالب الانجلو ــ روسية وكان النفوذ الروسى فى اطراد مستمر فى اليونان فقد انتخب « كابوديستريا رئيسا لليونان ، وهو وزير الخارجية الروسى السابق ، ولتفادى تثبيت المركز الروسى المتفوق فى اليونان طرحت بريطانيا مجددا مسألة عمل دولى مشترك •

وفى السادس من يوليو (تموز) ١٨٢٧ ، بعد شهر من الاستيلاء المصرى على اثينا ، وقعت فى لندن معاهدة وسمت بروتوكول بطرسبرج لعام ١٨٢٦ بانضمام فرنسا للدولتين حيث قررت الدول الثلاث الحصول على فصل اليونان المدنى عن تركيا • ورفض الباب العالى مرة أخرى فأقدمت الدول الثلاث على التدخل وفى ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) دخل اسطولها الموحد خليج « نفارين » حيث كانت ترابط القوات الأساسية للاسطولين التركى والمصرى • وبدأت المعركة التى انتهت بابادة الاسطولين المصرى والتركى ووجد ابراهيم نفسه فى وضع لا يحسد عليه اذ صار منقطعا عن قاعدته الأساسية كما أن تدخل الدول بعث قوة جديدة فى الانتفاضة اليونانية •

وفتحت « نفارين » باب حرب روسية ــ تركية كبيرة بدأت فى ربيع عام ١٨٢٨ لكن محمد على لم يسهم فيها واضطر الى الجلاء عن المورة وفى أغسطس (آب) ١٨٢٨ وقع محمد على فى الاسكندرية اتفاقية جلاء القوات المصرية عن المورة وبدأ الجلاء فعلا فى سبتمبر (ايلول) من نفس العام •

وهكذا انتهت هذه الحرب بتكبيد مصر خسائر كبيرة (٣٠ ألف جندى) بالاضافة الى حرمانها من اسطولها[١١] .

أما الحرب الروسية ــ التركية فقد انتهت بهزيمة الأخيرة فقد تقدم الروس فى آسيا حتى ارضروم وفى أوروبا حتى اندرينوبل وهدد هذا العاصمة العثمانية ذاتها غير أن الروس لم يقدموا على مهاجمتها أمام هياج الرأى العام فى أوروبا ومعارضة بريطانيا واضطر القيصر الروسى أن يذهب الى برلين بنفسه ليحصل على الوساطة البروسية[١٢] . وانتهى الأمر بتوقيع صلح ادرنه وبموجب شروط صلح ادرنة الموقع فى ١٤ سبتمبر (ايلول) ١٨٢٩ ، منحت اليونان الاستقلال الذاتى .

ومن الغريب أن روسيا خرجت من التجربة بنتيجة مغايرة تماما بالنسبة لتركيا اذ تحولت سياسة روسيا بعد عام ١٨٢٩ ولمدة عشر سنوات على الأقل الى النقيض التام من سياستها التقليدية الرامية الى مواصلة الزحف حتى القسطنطينية وضم كل ما تستطيع ضمه من الأراضى فى الطريق . وقصة ذلك أن القيصر نيقولا عين فى ١٨٢٩ لجنة من كبار سياسييه لبحث أمر نتائج انحلال الامبراطورية العثمانية المتوقع فأفتت اللجنة بأن المحافظة على سلامة تركيا أمر مستحب اذ رأت أن دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا استمر انحلال تركيا ولن تتمكن روسيا من السيطرة على هذه الدول ، فى حين أن لها فى تركيا بوضعها القائم اذ ذاك حقوقا تكفلها المعاهدات وتستطيع روسيا اذا شاءت السعى لكسب المزيد من الأراضى أن تتجه صوب أرمينيا أو بغداد لا القسطنطينية وما لبث نيقولا أن قبل تقرير اللجنة[١٣] .

---

(١١) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٢١ .

(١٢) جوزف حجار (الدكتور) : أوروبا ومصير الشرق ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٦) ص ٣٧ــ٣٨ .

(13) Grant, Temperely. op. cit., p. 260.

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه الحرب قد شلت يد الدولة فلم تقدم أى مساعدة للجزائر عندما غزتها فرنسا فى العام التالى • كما أن روسيا ساندت مشاريع البوربون للاستيلاء على الجزائر عام ١٨٣٠ •

التحالف الروسى التركى ضد محمد على :

أضعفت الهزيمة التى ألحقتها روسيا بتركيا الجيش التركى كثيرا وأدت الغرامة الحربية التى فرضت على تركيا الى ازدياد التذمر فى ولاياتها فبدأت انتفاضات فى بعض الولايات فى محاولة للخروج على الدولة مثال ذلك ماحدث فى العـــراق على يد داود باشا وان كانت الدولة قد أخمدت حركته •

أما محمد على فقد شجعه ضعف الباب العالى على التقدم نحـــو الشام واستقبلت جيوش محمد على فى الشـــام استقبال المنقـــذين المحررين من النير السلطانى • وبعد الانتصارات التى حققتها القوات المصرية فى الشام دخلت الأناضول وبينما كان الجيش المصرى يتقدم فى الأناضول ويستعد للمعركة الحاسمة ، قررت روسيا وبروسيا وتبعتهما النمسا سحب قناصلها فى مصر • وجاء استدعاء القنصل الروسى ليؤكد لمحمد على مخاوفه من روسيا • ولكن محمد على وان كان قد توقـــع معارضة من جانب روسيا « تقلب حساباته كلها وتجبره على التوقف » فانه كان يعتمد على انقسام الحكومات الأوروبية وعلى انتصار نهائى يحرزه فى البر أو البحر • وقد عبر محمد على عن ذلك فى حفـــل الوداع التى أقامها القنصل الروسى عندما استدعته حكومته محـــاولا اقناعه بضرورة قطع المساعدة عن السلطان وان من صالح روسيا مساندة العرب ضد الاتراك فالباب العالى مدين لروسيا وهو بحاجة للامـــوال لدفع تعويضات الحرب لها وهو ، أى محمد على ، اذ يطالب بسورية أو من الباب العالى فسيقدملهتعويضات تساعده على تسديددينهلروسيا

وحاول طمأنة الروس بالتأكيد بنفس أطماعه فى عرش السلطان حتى يزيل مخاوف روسيا من الخطر المصرى على القسطنطينية(١٤) .

ولكن محاولات محمد على لم تقنع روسيا بالتراجع عن مساندة السلطان العثمانى واستمرت القوات المصرية فى زحفها فاستولت على « اطنة » وفى ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٣٢ وقعت معركة كبرى بالقرب من « قونية » أوقع ابراهيم باشا هزيمة منكرة بالاتراك وسرعان ما دخلت طلائع قواته « بروسا » وأصبح الطريق الى استانبول مفتوحا أمام الجيش المصرى وعندما استنجد السلطان محمود الثانى بالدول الكبرى سارعت روسيا للوقوف بجانبه والتزمت فرنسا جانب محمد على. أما بريطانيا فقد أقلقها كثيرا تعزيز النفوذ الروسى فى الدولة العثمانية وتخوفت من وقوع الامبراطورية فى يد نفوذين فيقع شطرها الشمالى تحت النفوذ الروسى ويخضع الجنوبى لمحمد على ويتحول الى منطقة نفوذ فرنسية .

والحق ان انتصارات محمد على قد أقلقت الروس وهو ماوضحه وزير خارجيتهم من ذلك الحين « الكونت نسلرودة » حين قال أن الهدف من التدخل الروسى هو : (انقاذ القسطنطينية من امكانية وقـــوع انقلاب يضر بمصالحنا ويؤدى الى ســقوط دولة ضعيفة ــ الا أنها صديقة والى استبدالها بدولة أقوى وهى تحت نفوذ فرنسا ، موردا لآلاف المصاعب بالنسبة لنا) .

ولهذا تحركت روسيا للدفاع عن الامبراطورية العثمانية وســيادة السلطان وعند وقوع كارثة « قونية » وصلت الى اسطنبول بعثة روسية واذا بالسلطان يتجه ساعة يأسه الى عدوه التقليدى طالبا العــون .. وتوجه « الجنرال مورافييف » بمهمة خاصة الى سواحل البوســفور

---

(١٤) جوزف حجار : المرجع السابق ص ٦٤ــ٦٥ .

ثم الى مصر حيث وصل الاسكندرية فى ١٣ يناير (كانون الثانى) ١٨٣٣ وقدم نيابة عن القيصر الروسى عددا من المطالب لمحمد على منها أن يوقف فورا العمليات العسكرية وأن يعد بالخضوع للسلطان خضوعه لسيده • وكان مورافييف يتصرف بحزم وعندما سأل محمد على محدثه عن رغبة « صديقه القيصر » فى سبيل وضع حد للنزاع أجاب الجنرال الروسى : (ليس القيصر صديقك مطلقا بل صديق السلطان وهو يريد أن يبقى كذلك) وفى تلك الاثناء كان ابراهيم باشا يواصل تقدمه نحو استانبول دون أن ينتظر نتائج التدخل الروسى فتوجه من سهل قونية الى بروسيا وهى الهدف المباشر لهذا الزحف • ولكن أوامر محمد على القاطعة بلغته فى ٢ فبراير (شباط) فى كتاهية ، وكانت تقضى بأن يتوقف عن الزحف فى اللحظة التى تصله فيها ، تنفيذا للوعد الذى قطعه محمد على للجنرال الروسى • فانصاع ابراهيم باشا لهذا الأمر الجازم وتوقف زحف الجيش المصرى فى كوتاهية[١٥] •

وساد الذعر الدوائر التركية فطلب محمود الثانى رسميا المعونة العسكرية من روسيا فرسا فى ٢٠ فبراير اسطول روسى أمام شواطىء استانبول — وكانت هى المرة الوحيدة التى ظهر فيها هناك مثل هذا الاسطول برضا تركيا • وشرع فى مارس (آذار) فى انزال الفليق العسكرى الروسى المكون من ٢٠ ألف محارب ورابط مقر أركان حربه فى « هنكار اسكلسى » على الشاطىء الاسيوى من البوسفور قرب قصر السلطان الصيفى وارسل فى الوقت ذاته من جهة الدانوب فيلق روسى آخر مهمته الوصول الى العاصمة التركية بطريق البر •

وافزع التدخل الروسى بريطانيا وفرنسا فأسرعتا للعمل على احلال الصلح بين محمد على والسلطان حتى تبطلا أى حجة تتذرع بها روسيا للاستمرار فى البوسفور فقامت الدولتان بمظاهرة بحرية مشتركة

---

(١٥) نفس المرجع ص ٦٩ .

عند سواحل مصر فضغطتا فى الوقت نفسه على السلطان لينزل محمد على الشام • ومن ثم تم توقيع صلح كوتاهية فى الرابع من مايو (آيار) ١٨٣٣ بين تركيا ومصر [١٦] •

وهذا يوضح أن التدخل الروسى كان عاملاً رئيسيا فى تحرك بريطانيا وفرنسا ضد محمد على كما انه انقذ السلطان العثمانى ومكنه من الاحتفاظ بعرشه وامبراطوريته بعد أن فرضت المعاهدة على محمد على الانسحاب من الأناضول والاعتراف باستمرار سيادة السلطان عليه وبالفعل انسحب ابراهيم باشا الى الشام وبدأ وكأن قد انتهت •

وكذلك شرعت روسيا فى سحب قواتها ولكنها كانت قد وقعت مع السلطان معاهدة « هنكار اسكلسى » فى ٨ يوليو (تموز) ١٨٣٣ وكانت بمثابة حلف دفاعى بين الدولتين فى واقع الأمر ولمدة ثمانى سنوات تعهدت فيها روسيا بارسال قواتها لمساعدة السلطان « اذا اقتضت الضرورة ذلك » بينما كان على تركيا وفقا لطلب روسيا : قفل الدردنيل فى وجه السفن الحربية الأجنبية • وفى بند سرى يسمح للسفن الروسية الحربية بعبور المضايق •

ووسعت روسيا نطاق التحالف ضد محمد على ففى ١٨ سبتمبر (ايلول) ١٨٣٣ عقدت اتفاقية « مودخن جرانتز » [١٧] ــ كملحق لمعاهدة هنكار اسكلسى ــ مع النمسا وسرعان ما انضمت بروسيا اليها • وقضت الاتفاقية بما يلى : « ١ ••• اسناد كيان الامبراطورية العثمانية تحت حكم الاسرة الحالية ، وتكريس كل الوسائل العملية لبلوغ هذا الهدف • ٢ ــ ••• المناهضة الجماعية المشتركة لأية خطة من شأنها الحاق ضرر

---

(١٦) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٢٩ •

(١٧) نص الاتفاقية فى : Hurewitz op. cit., p. 105.

بحقوق السلطة العليا فى تركيا سواء عن طريق تنظيم وصاية العرش المؤقت أم بواسطة التغيير التام للسلالة الحاكمة » .

وجاء فى المادة السرية الأولى « ... تطبق بصورة خاصة على باشا مصر قرارات أحكام المادة الثانية .. للحيلولة دون بسط نفوذه بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الاقاليم الأوروبية من الامبراطورية العثمانية »[١٨] .

ومع أن بريطانيا وفرنسا نجحتا فى شل النتائج الفعلية لمعاهدة هنكار اسكلسى وملحقها فان الاتفاقيتين عقدتا بصورة خطيرة تحقيق أهداف محمد على وحرمتاه عن جنى ثمار انتصاره فى الحملة السورية الأولى .. وكانت قد تكونت نتيجتها فى اطار الامبراطورية العثمانية الموجودة شكليا دولتان . اذ وقعت فى قبضة ممحد على مصر والسودان والشام وكيليكيا وكريت والجزيرة العربية وبقى فى قبضة الدولة العراق والأناضول وبعض مناطق اللبقان . وواضح أن الأولى أكثر اتساعا وسكانا وثراء من الثانية وكان هذا الوضع محفوظا بالمخاطر ومنذرا بالانفجار[١٩] كما كان محمد على يتطلع نحو العراق .. ومعلوم أنه حين تحركت الجيوش المصرية الى الشام وكان العراق قد أعيد الى الحكم العثمانى المباشر ، أعلنت العناصر الوطنية الكارهة للحكم العثمانى المركزى فى العراق ــ أعلنت ولاءها لمصر ، فقد أعلنت الثورة ضد على رضا الوالى العثمانى الجديد فى بغداد عام ١٨٣٢ ، كما انضم يحيى الجيلى والى الموصل الى جانب مصر ، كذلك صفوف الفارس شيخ عشائر شعر الجبريا وبدأ كأن المشرق العربى بأسره بالاضافة الى الأناضول التركى سيصبح دولة كبرى فى المنطقة[٢٠] واتخذت الدول الأوروبية

---

(18) Ibid, p. 106.

(١٩) لوتسكى : المرجع السابق ١٣٤ .

(٢٠) عبد العزيز سليمان نوار (الدكتور) المصالح البريطانية فى انهار العراق ١٦٠٠ ــ ١٩١٤ (الانجلو المصرية ــ القاهرة ١٩٦٨) ص ١٦ .

وخاصة بريطانيا موقفا معاديا من محمد على وساعد ذلك تركيا على الاستعداد لاستئناف الحرب وبدأتها بعبور القوات التركية الفرات فى ٢١ ابريل (نيسان) ١٨٣٩ وتغلغلت فى ممتلكات محمد على ومع ذلك لم تحقق غير الفشل حيث دمرها الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا فى موقعة « نصيبين » فى ٢٤ يونيو (حزيران) وفتح الطريق أمام جيشه للعاصمة التركية واشتد تخوف روسيا من هذه المعركة — من خطر هجوم صاعق يقوم به الجيش المصرى أو الاسطول المحتشد فى الاسكندرية على العاصمة التركية خاصة وأن نتيجة المجابهة الروسية المصرية فى الأناضول اذا حدثت لن تكون فى صالح الروس ولجأت روسيا الى انذار محمد على معلنة (ان بوسعها أن تقضى على مشاريعه لخلع السلطان)[٢١] .

وفى ٣٠ من نفس الشهر توفى محمود الثانى وأعلن الاسطول التركى بقيادة فوزى باشا انضمامه الى ممحد على . وفقدت تركيا سلطانها وجيشها واسطولها فى أقل من شهر ولكن محمد على أمر ابراهيم باشا بعدم عبور جبال طوروس حتى لا يحدث تدخل روسى جديد . وكان محمد على مستعدا لتفاهم مع الباب العالى على أن يعترف له واسلالته بحكم مصر وممتلكاتها وكان الباب العالى من ناحيته مستعدا — بعد هزيمته الساحقة لقبول أى شرط يقدمه ابراهيم .

غير أن الدول الموقعة على معاهدة « مودخن جراتز » وروسيا فى مقدمتها طلبت الى الدولة العثمانية فى ٢٧ يونيو (حزيران) « عدم اتخاذ قرار نهائى بدون مساعدة الدول لها ، وأن ترقب نتائج التعاون المشترك الذى اتخذ من قبلهم من أجل مصيرها » وقدمت مذكرة للباب العالى موقعا عليها من الدول الأربع التى كونت الكتلة المعادية لمصر (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) وكذلك فرنسا التى رأت المساهمة

---

(٢١) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٤٥ .

فى النشاط الجماعى للدول حتى تتفادى عزل نفسها وتحمى مصالحها فى مصر والشام[٢٢] .

وأبرمت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو (تموز) ١٨٤٠ بين انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا . وكانت أول وثائق التسوية التى وضعت للمسألة المصرية وكان جوهر الحل الذى تضمنته هذه المعاهدة اعطاء محمد على وأسرته الحكم الوراثى فى مصر ولكن بشرط أن تبقى مصر ولاية عثمانية وقبلت فرنسا التسوية « وانضمت الى حظيرة الدول بتوقيعها اتفاقية البوغازات فى ١٣ يوليو (تموز) ١٨٤١ وهى التى لم تكن قد وقعت على معاهدة لندن[٢٣] .

وساهمت روسيا مع الدول الأربع فى الاتفاقية رغم انها كانت مقيدة لنشاطها . ومن المعروف أن محمد على رفض معاهدة لندن ولكنه اضطر أمام تدخل الدول الى التوقيع على الاتفاقية فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٤٠ انسحب بموجبها من كل البلاد العربية ولم يبق له سوى مصر وراثية مع احتفاظه بالسودان .

وابتداء من عام ١٨٤١ غدت بريطانيا صاحبة النفوذ الأول فى مصر التى اهدر برنامج استقلالها .

يتضح من هذا العرض أن روسيا ساهمت بدور نشيط فى احباط مشروع محمد على لاقامة دولة عربية كبرى فلقد أفسح وجود الجيش الروسى فى العاصمة العثمانية المجال أمام شتى الدسائس الدبلوماسية بين الدول المتنافسة ولم يرجع ذلك الضغط الروسى الا بتنازلات باهظة من قبل جميع الفرقاء المعنين . وصحيح أن بريطانيا كانت قد تحركت

---

(٢٢) جوزف حجار : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٢٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان (دار المعارف ـ القاهرة ط ١٩٦٣) ص ١٤ .

للحفاظ على مصالحها عندما رأت أن جيوش محمد على تشكل خطرا على هذه المصالح عندما وصلت الى اليمن وسارعت بريطانيا فاحتلت عدن فى عام ١٨٣٩ • كما سارعت لمواجهة الخطر المصرى عندما وصل الى سواحل الخليج العربى • ولكن النشاط الروسى فى الامبراطورية يهدف أن يكون للنفوذ الروسى تفوق على غيره هو الذى دفع بريطانيا وغيرها من الدول للتحرك •

وهكذا أوقفت أوروبا الفاتح المصرى وكرست بذلك أولى علاقات حمايتها الدبلوماسية للباب العالى وتضاءلت مكانة السلطان ومحمد على على السواء وغدت مصر تحت وصاية أوروبية •

وشهد عام ١٨٤١ أيضا نزاعا ايرانيا ــ تركيا كاد يؤدى الى الحرب بين الجانبين فقد اقتحمت القوات الايرانية السليمانية لمساندة تمرد قام به الاقطاعيون الأكراد ضد الدولة فتقدمت روسيا وبريطانيا للتوسط فى تسوية النزاع وأدى ذلك الى عقد معاهدة أرضروم الثانية فى ٣١ مايو (ايار) ١٨٤٧ التى تخلت بموجبها ايران من ادعاءاتها فى السليمانية وبعض المناطق الأخرى فى مقابل تنازل الباب العالى لايران عن المحمرة والساحل الأيسر لشط العرب[٢٤] •

ولا شك أن فى هذا اضعاف للدولة العثمانية وهو ما سعت اليه الوساطة الروسية لأنه برغم الاتفاقية ظلت الحركات الكردية المعادية للدولة فى شمال العراق مستمرة كما أن هذه الاتفاقية قد ألحقت بالعراق ضررا كبيرا بنقلها للمحمرة والساحل الأيسر لشط العرب الى ايران •

ولم تتوقف الأطماع الروسية فى الأراضى التركية بعد تسويات ١٨٤٠ــ١٨٤١ ففى عام ١٨٤٤ سعى القيصر نيقولا الثانى فى محادثاته الشهيرة مع « اللورد ابردين » وزير الخارجية البريطانية لايجاد

---

(٢٤) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٧١ •

تقارب مع بريطانيا للوصول الى تفاهم بالنسبة للمستقبل واتضحت نواياه من وصفه للسلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » وأعرب عن رأيه فى أن الامبراطورية العثمانية فى طريقها الى الانهيار وأنه يحسن اتخاذ الأهمية للامر تقدما وأبدى رغبته فى الحصول على العاصمة العثمانية وفى المقابل تحصل بريطانيا على مصر ، وكريت اذا شاءت أيضا • وقال انه بهذا يبرهن على استعداده لمراعاة مبدأ التوازن الدولى واعطاء تعويض عادل لبريطانيا • وسيكرر نيقولا هذا العرض لابردين عندما أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا فيما بعد فى عام ١٨٥٣ ولكن بريطانيا ترفض العرض[٢٥] •

(٣)

الاطماع الروسية فى الأماكن المقدسة وحرب القرم

تضمنت معاهدة كوتشك قينارجة لعام ١٧٧٤ مادتين أثار تفسيرهما خلافا كبيرا فقد نصت احداهما (١٤) على السماح لروسيا ببناء كنيسة مسيحية فى « غلطة » ــ وهى جزء من استانبول ــ وابقاء تلك الكنيسة تحت حمايتها على الدوام ووعدت تركيا فى مادة أخرى (٧) بحماية الكنيسة والديانة المسيحية فى ممتلكاتها والسماح لسفراء روسيا بمخاطبة السلطات نيابة عن كنيسة غلطة • وأدعى الروس أن لهم بناء على المادتين حقا فى تمثيل الطوائف المسيحية فى البلقان وحمايتها ولما كان من شأن الاعتراف بهذا الحق قيام خطر التدخل بصفة دائمة فقد أصرت تركيا على رفض الاعتراف بهذا الحق المزعوم •

ثم ظهرت مسألة الأماكن المقدسة وهى مسألة كانت تثير عواطف جدية وكانت تنصب على ادارة أماكن الحج فى القدس ولا سيما كنيسة الميلاد فى بيت لحم : وقد دأبت الحكومة التركية على ضغط التوازن

---

(25) Grant, Temperly, op. cit., p. 265.

بين الدعاوى المتضاربة للاتين أو الروم الكاثوليك من ناحية والارثوذكس أو المسيحيين الروس واليونانيين من ناحية أخرى • وقد كان للحكومة الفرنسية ادعاء تقليدى يرجع الى زمن الصليبيين فى أن تعتبر حامية للمسيحيين فى الشرق ولكن القياصرة الروس بدءوا يتقدمون منذ نمو سلطان روسيا بدعواهم الخاصة فى هذا الصدد ، فكان أن عزز الشعور الدينى الخصومات القومية والمطامع السياسية وأثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم ووضع نجمة فى شارة المزود المقدس أشد العواطف تأججا[٢٦] ولقد تفوق الأغريق والكنيسة الارثوذكسية فى الأراضى المقدسة خلال الثلاثينات للقرن التاسع عشر نتيجة للاموال التى كانت تقدمها روسيا والحجاج الروس والرعاية الروسية الكبيرة • ونشأ عن ذلك أن انتقل بطريرك بيت المقدس الارثوذكس الى القدس بعد أن كان مقر اقامته فى استانبول •

وكانت روسيا تنظر الى السياسة البريطانية والفرنسية التى نشطت فى اقامة القنصليات فى بيت المقدس وادعاء حماية اليهود والمسيحيين الكاثوليك والمذهب الأنجلى مع نهاية الوجود المصرى فى الشام — بعين القلق وما فتئت تسعى لقطع خط الرجعة على النفوذ الفرنسى الكاثوليكى خاصة وان عدد الارثوذكس من الجاليات الأجنبية والوطنيين يزيد عن عدد اللاتين والكاثوليك وان روسيا التى نفضت فى روح الارثوذكسية وادعت حماية جميع الكنائس الشرقية قد أصبحت تتمتع بعطف الوطنيين من أبنائها ، وتمارس سلطانا غير مباشر على الأرمن والسريان والقبط والأحباش • وفى عام ١٨٤٧ تكونت فى روسيا على سبيل المثال الجمعية الروسية — الفلسطينية وهى التى تحولت عام

---

(26) Ibid. pp. 268 — 269.

* لمزيد من التفاصيل عن بداية الاطماع الروسية فى حماية الارثوذكس فى الدولة العثمانية راجع :

Sumner op. cit., pp. 30 — 32, 78.

١٨٩٣ الى الجمعيـــة القيصرية الارثوذكسية بفلسطين وقامت هـــذه الجمعية بكثير من الأعمال الدعائية لخدمة النفـــوذ القيصرى الروسى بالمنطقد[٢٧] .

ولم يرض ذلك كله فرنسا وتقدمت حكومة فرنسا عام ١٨٥٠ الى الباب العالى تبين له تمسك فرنسا بامتيازاتها وفقا لمعاهدة ١٧٤٠ ، وأن الامتيازات التى منحت لغير الفرنسيين فى تاريخ لاحق تلغيها ، أما روسيا فلم تكن من ناحيتها مستعدة للتنازل عما اكتسبته الكنيســـة الأرثوذكسية من حقوق . ولم يستطع الباب العالى أن يوفق بين مطالب الطرفين .

وفى محاولة للضغط على السلطان العثمانى احتلت روسيا ولايتى الدانوب وأصبحت مطالبها خطرا كبيرا يهدد الدولة نفسها . وتكونت لجنة لبحث المطالب الفرنسية ــ وكان لفرنسا اسطول قوى فى البحر الأبيض يمكنها بواسطته تهديد ممتلكات الدولة ــ فرأت أن تشترك فرنسا وروســيا فى الاشراف على الأماكن المقدســة ، ولكن القيصر الروسى رفض وهدد باستخدام القوة وفى نفس الوقت هدد الســفير الفرنسى باستخدام القوة اذا أقر الباب العالى مطالب روسيا[٢٨] .

وعلى هذا الأساس كانت مسألة الأراضى المقدسة مقدمة للحرب . فأمام موقف فرنسا المتشدد قرر القيصر الروسى القيام بمناورات حربية على الحدود العثمانية وأرسل بعثة الى استانبول برئاسة مستشــاره « منشكوف » بهدف تهديد السلطان حتى يمنعه من الاستجابة لمطالب

---

(٢٧) عز الدين فودة (الدكتور) دراسة بعنوان « الصراع الدولى حول فلسطين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور » ، منشورة فى مجلة معهد البحوث والدراسات العربية عدد ١ مارس (اذار) ١٩٦٩ ص ٧٥ وما بعدها .

(٢٨) محمد مصطفى صفوت (الدكتور) : المسألة الشرقية ومؤتمر باريس (معهد البحوث الدراسات العربية ــ القاهرة) ص ٢٩ــ٣٠ .

فرنسا وكان يريد فرض حماية روسية على رعايا السلطان الارثوذكس ... وتصاعدت الأزمة .

وقدم منشكوف مطالب بلاده وكان من بينها تعيين البطاركة الأربعة الارثوذكس فى الدولة العثمانية مدى الحياة — حتى لا يكون للسلطان سلطة فى ابعادهم أو عزلهم لا سيما وقد كان لهم نفوذ سياسى كبير الى جانب نفوذهم الدينى .

وعندما استكملت روسيا استعدادها الحربى على الحدود التركية عند نهر بروث قدم منشكوف انذارا الى السلطان يطالب بـ «ضمانات» وجدتها بريطانيا تهدد بالخطر استقلال الدولة العثمانية وعاد منشكوف يصر على اغلاق الدردنيل أمام سفن فرنسا وانجلترا ، كما طالب فى ١٣ مايو (ايار) ١٨٥٣ — فى مقابلته للسلطان — بعزل رئيس الوزراء ووزير الخارجية فخضع السلطان لمطلبه ، وتحت ضغطه عين السلطان رشيد باشا وزيرا للخارجية ومع كل هذا فشل منشكوف فى مهمته لأن الأتراك رفضوا انذاره بعد أن دعت بريطانيا لعقد اجتماع من ممثلى فرنسا والنمسا وبروسيا للتوسط فى النزاع . فما كان من القيصر الروسى الا أن أمر جيوشه باحتلال ولايتى الدانوب (الافلاق والبغدان) فأرسلت انجلترا وفرنسا اسطوليهما الى خليج بيسيكا خارج الدردنيل . واحتجت الدول على احتلال الروس للولايتين الدانوبيتين .

وفى ٣١ مايو أرسل نسلرود بناء على تعليمات سيده انذارا الى تركيا ، بأن الجيوش الروسية ستحتل الولايتين الدانوبيتين اذا لم تجب مطالب روسيا كاملة ، ووصل الانذار الى القسطنطينية فى العاشر من يونيو (حزيران) وقبل وصوله كانت تركيا ، لتفوت على الروس خطتهم ، قد اعترفت بحقوق رعاياها الارثوذكس ورفض وزير خارجيتها الانذار الروسى فى ١٦ من نفس الشهر .

وفى السابع من يوليو (تموز) وصلت تركيا أنباء عبور الروس حدودها ومع ذلك لم يعتبر السلطان ذلك سببا للحرب[٢٩] .

وفى ٤ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٥٣ أعلنت تركيا الحرب على روسيا وبدأتها باطلاق النار على الجنـــود الروس الذين عبروا نهـــر بروث واحتلوا الافلاق والبغدان . وأجاب الروس باغراق الاسطول التركى على مقربة من سينوب فاجتاحت بريطانيا موجة من السخط ورأت دخول الاساطيل البريطانية والفرنسية البحـــر الأسود لوضع حـــد لاعتداءات الاسطول الروسى وفى ٢٧ مارس (آذار) ١٨٥٤ قررت بريطانيا اعلان وقف الحرب ووقفت فرنسا الى جانبها وفى ١٠ ابريل (نيسان) عقدت حكومتا بريطانيا وفرنسا حلفا رسميا ضد روسيا ، وبذا أصبح نابليون الثالث حليفا لملكة بريطانيا .

وفى ٣ يونيو (حزيران) طلبت النمسا من روسيا اخلاء ولايتى الدانوب ورأت روسيا انه لا سبيل لها فى حرب فى البلقان مع الجيوش النمساوية فى الوقت الذى تهددها فيه أساطيل الحلفاء فى البحر الأسود وامام نصح بروسيا لروسيا بالانسحاب من ولايتى الدانوب وخشـــية روسيا من انضمام بروسيا الى النمســـا ونتيجة لذلك وضـــعت النقط الأربع بين فرنسا والنمسا خلف ظهر بريطانيا . وهذه النقاط الأربع هى التى سيرت دبلوماسية حرب القرم .

وجاء فى هذه النقاط ان اقامة علاقات طبيعية بين تركيا وروسيا يجب أن تكون على الأسس الآتية :

١ ــ وضع ضمان أوروبى لولايتى الدانوب محل حماية روسيا لهـــا .

٢ ــ تقرير حرية الملاحة فى نهر الدانوب .

---

(٢٩) نفس المرجع ص ٣٥ــ٣٦ .

٣ ــ اعادة النظر فى اتفاقية المضايق ١٨٤١ لصالح توازن القوى فى أوروبا •

٤ ــ ترك الروس ادعاءاتهم حق حماية الرعايا المسيحيين للدولة العثمانية وبدلا من هذا تأخذ الدول الاوروبية وعدا من السلطان بتحسين حالة رعاياه المسيحيين •

وقامت حرب القرم فى الواقع على أساس النقطة الثالثة وعلى أساس تفوق قوة روسيا فى البحر الأسود لأن هذا كان له أثره على تركيا وعلى توازن القوى فى أوروبا • واضطرت الحكومة البريطانية الى قبول النقط الأربع بعد تردد • ولكن فى الوقت الذى وصلت الى فيينا موافقة الانجليز وصلتها أنباء انسحاب الروس من ولايتى الدانوب • ودخلت قوات النمسا الولايتين • وقد ترك انسحاب الروس الحلفاء فى حيرة من أمرهم فهم قد دخلوا الحرب لوقف العــدوان الروسى واذا بروسيا تنسحب من ولايتى الدانوب فكيف يهاجم الحلفاء روسيا ؟ ولم يكن أمامهم بعد هزيمتهم السياسية أمام النمسا الا خوض الحــرب ضد روسيا فنابليون الثالث يرغب فى بحث بولندا من جديد على نطاق واسع ولكن بريطانيا لا تريد اغضاب النمسا وبروسيا وانتهى الأمر الى القيام بحرب بحرية وبرية ضد القاعدة الروسية فى اسباستبول وبذلك يقضون على قوة روسيا البحرية وينفذون النقطــة الثالثة • استطاع الحلفاء أنزال حوالى ٣٥ ألف جندى فى شبه جزيرة القرم ، وفى سبتمبر حاول الروس منعهم من التقدم ولكن الهزيمة حلت بهم فى موقعة « ألما » وأغرق الأسطول الروسى عند مدخل سباستبول وحاول الروس مرتين طرد الحلفاء وفشلوا ولكن الحلفاء لم يأخذوا اسباستبول وظل الأمر على حاله حتى يونيو (حزيران) ١٨٥٥ وكان معنى هذا العودة الى ميدان السياسة •

---

(٣٠) نشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع (دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢١ •

أمام عقد تحالف فرنسى بريطانى نمسوى فى ٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٥٤ أعلن الروس فى ٢٩ منه قبولهم للنقاط الأربع •

وعقد مؤتمر للصلح فى فيينا فى ١٥ مارس (آذار) ولكن الروس رفضوا مقترحات الحلف القاضية بتحديد قواتهم فى البحر الأسود فانفرط عقد المؤتمر • وعاد الحلفاء للحرب — لكن النمسا رفضت دخولها — فسقطت سباستيول فى أيديهم فى ٨ سبتمبر (ايلول) وكان هذا يعنى انتصار فرنسا وبريطانيا فى حرب القرم •

ولما أحست النمسا بنية فرنسا التقارب مع روسيا حتى يمكنها اطلاق يدها فى أوروبا بعقد حلف روسى — فرنسى • قررت العمل على فرض النقط الأربع كما فسرها الحلفاء ، على روسيا والاشتراك مع الدول الثلاث فى ضمان سلامة الدولة العثمانية وفسر « بول » امبراطور النمسا النقطة الأولى فى صالح بلاده فتقتطع بساريا من روسيا ، لتبعد الأخيرة عن مصب الدانوب كما فسرت النقطة الثالثة بحيرة البحر الأسود ، كما اختفت القوة البحرية الروسية فى هذا البحر وقرر الحلفاء ألا يكون لتركيا قوة بحرية فيه • واضطرت روسيا التسليم أخيرا ووقعت مقدمات الصلح فى أول فبراير (شباط) ١٨٥٦ وبذلك انتهت حرب القرم •

وتعهد السلطان العثمانى بالعمل على المساواة التامة بين رعاياه المسلمين والمسيحيين وأصبحت الملاحة حرة فى كل حوض نهر الدانوب • وفتحت ولايتا الدانوب استقلالها تحت سيادة السلطان وضم جزءا من بسارابيا اليها • وعادت الحدود بين تركيا وروسيا فى آسيا الى ما كانت عليه قبل الحرب ، وأصبحت تركيا تتمتع بكل الحقوق فى ظل القانون الدولى ، واتفقت الدول المتعاهدة على احترام ممتلكات الدولة العثمانية والمحافظة عليها ، وان أى اعتداء على تركيا يكون معناه دخولها الحرب الى جانبها (النمسا ، فرنسا ، بريطانيا)[٣١] •

---

(٣١) صفوت : المرجع السابق ص ٤٧—٤٩ .

وهكذا فان روسيا التى استغلت النزاع على الأماكن المقدسة فى فلسطين لتقوية نفوذها فى أملاك الدولة العثمانية فى البلقان خرجت من النزاع خاسرة وأظهرت حرب القرم التى نشأت عن هذا النزاع مدى ما عليه روسيا من ضعف ولم يعد لها دور كبير فى مسائل أوروبا ولم تستعد مركزها فى أوروبا الا فى سنة ١٩٤٥ ، وكان المتصرف فى شئون أوروبا دول غرب ووسط القارة •

واذا كانت نتائج حرب القرم جاءت سيئة بالنسبة لروسيا فقد أدت الى خسائر كبيرة بالنسبة للدولة العثمانية وهو ما جاءت به مقررات مؤتمر باريس الذى عقد لتسوية الأوضاع بعد هذه الحرب •

فقد افتتح المؤتمر فى ٢٥ فبراير (شـــباط) ١٨٥٦ وحضرته بريطانيا وفرنسا والنمسا والمجر ولكن ظل الاجتماع الى ١٦ ابريل فلقد تحول الى اجتماع أوروبى •• وقبل التوقيع على المعاهدة أصدر الباب العالى خطأ همايونيا ضمنه حقوق الطوائف المسيحية فى الدولة ، وأعلن رغبته فى ادخال تنظيمات جديدة كما أعلن المساواة التامة بين الأديان والجنسيات المختلفة ، وأخذ المؤتمر علما بهذا العهد • واجتمع المؤتمر لحل مشكلة الشرق الأدنى وقبل الروس حياد جزائر آلاند Aaland وحلت مشكلة العلاقات الروسية التركية فى ثلاثة أمور :

١ ــ وعد السلطان بالاصلاح •

٢ ــ اعلان حياد البحر الأسود •

٣ ــ استقلال ولايتى الدانوب عن حماية روسيا • وكان من أهم شروط المعاهدة تحرير رومانيا وجعلها دولة مستقلة حتى تصبح حاجزة بين تركيا وروسيا ولتقف أمام مطامع النمسا فى السيطرة على وادى الدانوب كله •

وأصبحت مسألة الدولة العثمانية رسميا مسألة أوروبية • وقـــد أكسبت معاهدة باريس تركيا مركزا خاصا وضمنت لها على الأقـــل

نظريا وقوف الدول الأوروبية الغربية الى جانبها ضد روسيا بينما دمرت قوة روسيا الحربية لمدة عشرين سنة • ولم تعد تهتم كثيرا بمسائل أوروبا لمدة ١٥ سنة ، وأصبح مستقبل روسيا هو فى الامبراطورية وفى التوسع فى آسيا الشمالية وآسيا الوسطى وكرست جهودها الى الغاء شروط باريس التى تمس البحر الأسود وبسارابيا(٣٢) •

وعلى الرغم من خروج روسيا خاسرة من مؤتمر باريس فانها لم توقف نشاطها فى فلسطين بل استمر ذلك النشاط على يد الجمعية الروسية بفلسطين فقامت ــ تحت ستار رعاية شئون الحجاج والبعثات الدينية وتيسير أماكن الاقامة وطرق الانتقال بالأماكن المقدسة بكثير من الأعمال الدعائية لخدمة النفوذ القيصرى الروسى بالمنطقة وزاد هذا النشاط بنوع خاص من بعد أن ترأسها الأمير « سيرج » شقيق الاسكندر الثالث فى أعقاب حرب القرم حيث أنشأت شركة للملاحة والنقل الى فلسطين ومكتبا لهذا الغرض بأوديسا ، كما قامت بانشاء عدد كبير من الجمعيات الخيرية والمدارس والمستشفيات فى القدس والناصرة وحوران ودمشق ، ومدرسة للطب فى بيروت • وأرسلت الحكومة الروسية فى أعقاب معاهدة باريس بعثة برئاسة موظف روسى كبير (M Boris De Mansour off) لدراسة الأوضاع بالأماكن المقدسة وتقوية روح الأرثوذكس المقيمين بها • كذلك أرسلت بعثة دينية أخرى فى فبراير ١٨٥٨ ، قامت بشراء الأراضى وانشاء المبانى والمؤسسات فى ضواحى المدينة المقدسة لاقامة الارساليات واستقبال الحجاج الروس• وغدت الجمعية الروسية تباشر اشرافها على جميع هذه المؤسسات بالمدينة المقدسة ، وكان هذا مقدمة للنفوذ الروسى بالمنطقة • فأصبحت اللغة الروسية شائعة بين الارثوذكس ، كما أصبح السعى الى الكنيسة الروسية والحبشية الذى استهدفته بعثة روسية الى الحبشة عام ١٨٩٧ ، وبعثة النجاشى الى روسيا عام ١٨٩٥ احدى خطوات هذه السياسة التى

---

(٣٢) فشر : المرجع السابق ص ٢١٩ .

استهدفت ضد نفوذ القيصرية الى قلب افريقيا • وعدلت روسيا فيما بعد عن تدعيم قنصليتها بدمشق من أجل الاشراف على رعاية مصالحها بالقدس وأنشأت لها قنصلية بالمدينة المقدسة كان أول من ترأسها (M. Dorgaboujin off) • وبقى راسخا فى الاذهان أن روسيا مازالت (من الناحية الفعلية) حامية الأرثوذكس[٣٣] •

وشاركت روسيا فى الأحداث التى قامت فى لبنان عام ١٨٦٠ وتدخلت فى شئونه مع المتدخلين من الدول الاوروبية وكان ذلك بطبيعة الحال تدخلا فى شئون الدولة العثمانية فعندما أعلنت فرنسا عن نيتها فى أعقاب المذابح التى جرت فى لبنان فى ذلك الوقت وجدنا روسيا وبريطانيا تتخوفان من هذا التدخل الذى قد يؤدى الى استيلاء الفرنسيين على الشام وأصرتا على عقد مؤتمر دولى للحد من تحرك نابليون الثالث ، وفى ٥ سبتمبر (ايلول) ١٨٦٠ وقعت ست دول (انجلترا ، فرنسا ، النمسا ، بروسيا ، روسيا ، وتركيا) على الاتفاقية التى قررت أن القوة الفرنسية التى تنزل لبنان يجب ألا يتجاوز عددها ١٢ ألفا والا تبقى أكثر من ستة أشهر وفضلا عن ذلك أوفد الى سوريا مندوبين عن الدول الموقعة على الاتفاقية • ألفوا لجنة تتحرى أسباب الأحداث اللبنانية وتكشف عن المذنبين الحقيقيين وتعاقبهم وتتلافى وقوع أحداث مماثلة عن طريق ايجاد نظام جديد للبنان — ومع ذلك أنزلت فرنسا قوات فى بيروت عشية الاتفاق ولما حاول نابليون الثالث تجاهل الاتفاق وابقاء قواته فى سوريا طالبت انجلترا والنمسا بانسحاب فرنسا وهددتا بالحرب فتم الانسحاب فى يونيو (حزيران) ١٨٦١[٣٤] •

ومعروف أن هذه الأحداث أدت الى وضع « نظام أساسى » أصبح بموجبه جعل لبنان منطقة ذات حكم ذاتى يترأسها حاكم مستقل

---

(٣٣) عز الدين فودة : المرجع السابق ص ٧٦—٧٧ •

(٣٤) لوتسكى : المرجع السابق ص ١٦٤—١٦٥ •

عن ولاية بيروت ودمشق ويتبع الباب العالى مباشرة • ويلاحظ أن هذا التدخل الدولى الجديد والذى شاركت فيه روسيا يضعف من سلطة الباب العالى ويخدم مصالح دول أجنبية فى مقدمتها فرنسا كما أن النظام الذى صيغ على أســـاس طائفى ظل مقلقا للوضع فى لبنـــان بعد ذلك •

(٤)

الحرب الروسية ــ التركية ١٨٧٧ وأثرها على العرب

أساءت الهزيمة التى لحقت بروسيا فى حرب القرم الى سمعة السياسة الخارجية الروسية فهبط دورها فى العلاقات الدولية وقـــد حرمتها معاهدة باريس المرهقة من حق امتلاك اسطول حربى وحصين على البحر الاسود •وكانت الحدود الجنوبية لروسيا غير محمية ، الأمر الذى كبل أيدى القيصرية ولم يعطها امكانية انتـــاج ســـياسة خارجية نشيطة •

لذلك فان المحتوى الأساسى لسياسة روسيا الخارجية فى نهاية العقد السادس وفى العقد السابع للقرن التاسع عشر كان العمل من أجل تصفية الشروط التى أمليت على روسيا فى صلح باريس • وقبل كل شىء البنود المتعلقة بحياد البحر الاسود •

وكانت سياسة روسيا الخارجية مركزة فى يد القيصر الاسكندر الثانى الذى لم يكن له المام حقيقى بشئون السياسة الخارجيـــة أو الداخلية وكان عنيدا مترددا تنقصه الحيوية والنشاط ولكنه بعد حرب القرم أوكل مهمة وزارة الخارجية الى « جورتشاكوف Gorchakov » الدبلوماسى الحاذق وقد استغل الرجل التغيرات التى طرأت على الوضع الدولى لكى يزيل عزلة روسيا خاصة وان التحالف الذى انتصر فى حرب القرم كان قد تفكك وتأزم الوضع فى أوروبا بشدة ونشأت بين أكبر

الدول الأوروبية تناقضات حادة أدت الى عدد من الاشتباكات المسلحة وفى هذا الوضع سلكت الحكومة القيصرية سياسة المناورة ، مستغلة التناقضات بين الدول الكبرى[٣٥] •

وكانت المسائل التى تشغل بال السياسة الروسية فى ذلك الوقت : مسألة آسيا الوسطى والجامعة الصقلبية ، والعلاقات الألمانية — الروسية •

كان تهديد روسيا للهند فى حرب القرم تهديدا غير مباشر ، تهديدا للمواصلات البريطانية الى الهند ، وذلك عن طريق السيطرة على المضايق • ولكن بعد ذلك بعشرين سنة كان تهديد روسيا للهند تهديدا مباشرا ، اذ فى خلال عشرين سنة كانت معظم آسيا الوسطى ومعظم القوقاز قد أصبحت فى اطار روسيا ، فمنذ عام ١٨٦٤ كان التوسع الروسى مستمرا فى تركستان وفيما بين سنتى ١٨٦٥ ، ١٨٦٨ سقطت طشقند ، وسمرقند ، فى يد الروس وأصبحت بخارى امارة تابعة لبطرسبرج • وأثار تقدم الروس فى آسيا الوسطى مخاوف بريطانيا التى رأت فيه تهديدا واضحا للهند ، وخشيت من خضوع افغانستان وايران للنفوذ الروسى •

وأما حركة الجامعة الصقلبية (بانسلافيزم Panslavism) فكانت بصفة عامة ترمى الى ضم جميع صقالبة أوروبا تحت جناح روسيا • وهذه الحركة تؤثر بطبيعة الحال فى علاقات روسيا مع الدولة العثمانية ومع الامبراطورية النمسوية المجرية لأنه جانبا من رعايا الدولتين من الصقالبة • وكان مركز الحركة هو موسكو ورأسها « بوجودين Pogadin » استاذ التاريخ فى جامعة موسكو ، وتطورت فكرة هذه الحركة الى العمل على تخليص الصقالبة الارثوذكس فى البلقان من الحكم العثمانى •ومن ثم كان خطر حركة الجامعة الصقلبية

(35) Grant Temperly : op. cit., p. 278.

على الدولة العثمانية لأنها تعنى فى حالة نجاحها القضاء على سلطة الدولة وعلى الامبراطورية العثمانية فى أوروبا •

وكان من رجال هذه الحركة « فادايف Fadayev » وهو ضابط عمل فى الجيش المصرى فى عهد الخديو اسماعيل ، وكان يأمل فى تقوية الجيش المصرى ليستطيع تحدى الدولة العثمانية • ومنهم أيضا « اجناتيف Ignatiev » سفير روسيا فى استانبول وكان يعمل بنشاط على انهيار الدولة العثمانية أو وقوعها تحت السيطرة الروسية(٣٦) •

واذا انتقلنا الى تركيا مع بدايات النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدنا انه فى الوقت الذى تطورت فيه الرأسمالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية لم يكن متوفرا فى تركيا والاقطار العربية التابعة لها سوى أولى مقدمات الرأسمالية وقد تأخرت عمليات التخلص من النظام الاقطاعى وبدأ الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية ولكن ذلك كان يجرى بخطوات بطيئة للغاية وفى ظروف متناقضة الى حد كبير •

وقد تحولت تركيا الى سوق ثم الى شبه مستعمرة للدول الأوروبية الرأسمالية فقد مهدت السبيل للرأسمال الأجنبى مرحلة التنظيمات الثانية التى بدأت بـ « خط همايونى » عام ١٨٥٦ والتى اكتسبت ، بحكم صلح باريس شكل الالتزامات الدولية وفتحت بابا للرأسمال الأجنبى اذ تعهدت الدولة العثمانية بمنح امتيازات السكك الحديدية والبنوك وصناعة التعدين وغيرها من الامتيازات الى الرأسماليين الأجانب • كما منحتهم حق شراء الأراضى من الامبراطورية العثمانية وأعطت عملاءهم المحليين عددا من التسهيلات •

وهكذا كان صلح باريس لعام ١٨٥٦ فاتحة لتحويل تركيا والاقطار العربية التابعة لها الى شبه مستعمرة للرأسمال الأجنبى • والى جانب هذا كانت الحرب التى سبقت معاهدة باريس من ١٨٥٣ — ١٨٥٦ بداية

لتوريط تركيا فى الديون ففى عام ١٨٥٤ عقدت تركيا لتسديد النفقات العسكرية أول قرض خارجى استلمت منه ٦٠ مليونا فقط من أصل ٧٥ مليونا من الفرنكات وهى قيمة القرض الأصلى وخصصت ما كانت تدفعه مصر لخزينة الدولة كضمان لهذا القرض • وفى عام ١٨٥٥ ابرم القرض الثانى ومبلغه ١٢٥ مليون فرنك وخصصت مداخيل جمارك أزمير وسوريا ضمانا له • وقبيل عام ١٨٧٤ بلغت قيمة القروض الاسمية ٥٣٠٠ مليون فرنك لم تستلم منها تركيا سوى ٣٠١٢ مليونا فقط أى ٥٦٫٨٪ من مجموع قيمة القروض وحسمت البنوك (الفرنسية فى الغالب والبريطانية الى حد ما) ما يربو على مليارى فرنك أو ٤٣٫٢٪ كفوائد وعمولات وغير ذلك[٣٧] •

ولكى تتخلص من القيود التى فرضتها معاهدة باريس عليهـا ، تحركت روسيا فى عام ١٨٧٠ وجاء هذا التحرك فى صورة مذكرة وزعها وزير خارجيتها جوزتشاكوف جاء فيها : ان روسيا لا تستطيع أن تنفذ تلك البنود فى معاهدة باريس التى تهدد أمن حـدودها ، وذلك لأن المعاهدة قد خرقتها الدو لالأخرى •

وقد وافق المؤتمر الدولى المنعقد فى لندن عام ١٨٧١ على طلب روسيا ونالت روسيا من جديد حق انشاء الحصون على شواطىء البحر الأسود ، وفى ان تملك هناك اسطولها البحرى •وكان هذا نجـاحا كبيرا للدبلوماسـية الروسـية وطد بشـكل ملمـوس مواقع روسيا دوليـا[٣٨] •

وكان قسم كبير من اليونانيين والرومانيين وكذلك السـلاف

---

(٣٦) يبيفلنوف : المرجع السابق ص ٣٩٨ .

(٣٧) صفوت : مؤتمر برلين واثره فى البلاد العربية (معهد الدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٥٧) ص ١٧ــ١٨ .

(٣٨) لوتسكى : المرجع السابق ص ٣٧٤ــ٣٧٥ .

الجنوبين (البلغار والهوسينيون والهرسكيون وقسم من الصرب) لا يزالون تحت الحكم العثمانى وناضلت شعوب البلقان من أجل التخلص من الحكم التركى وتطلعت بأنظارها الى روسيا اذ أن الشعوب السلافية كانت تعتبر روسيا الشقيقة الكبرى وقد سعى الحكم المطلق فى روسيا الى اعادة نفوذه فى البلقان مستغلا هذه المشاعر • ودافعت روسيا عن مصالح السلاف على المسرح الدولى وقدمت لهم مساعدة مادية وأيدت الكنيسة الارثوذكسية العملية ولكن الحكومة القيصرية كان يهمها من كل هذا وبالدرجة الأولى تعزيز مواقعها فى الشرق الأدنى وفى شبه جزيرة البلقان •

وفى ١٨٧٥ قامت انتفاضة ضخمة فى البوسنة والهرسك ، وفى ابريل (نيسان) ١٨٧٦ فى بلغاريا وقد قمع الاتراك هذه الانتفاضات بوحشية •

وفى صيف ١٨٧٦ بدأت صربيا والجبل الأسود الحرب ضد تركيا ، الا أن القوى لم تكن متساوية وانتهى الأمر بتغلب الأتراك • كما تاقت ولايتا الافلاق والبغدان الى الاستقلال نهائيا عن الدولة ، وبدأت اليونان ترنو ببصرها الى توسيع حدودها الشمالية • وكان لتأييد الكنيسة المسيحية أثر كبير فى اثارة الهياج على الدولة العثمانية فى البلقان وقد قامت الثورة فى البلقان يدفعها الشعور القومى والدينى والتدخل الاجنبى معتمدة على مساعدة روسيا وقد لاقت انتفاضات السلاف مساندة حارة فى روسيا وأعرب الكثيرون عن رغبتهم فى الانضمام كمتطوعين الى الجيش الصربى •

ولقد أصيب الجيش الصربى بعدد من الهزائم • ولم ينقذ الصرب من هزيمة كاملة الا تدخل روسيا واعلانها عن التعبئة الجزئية • فوقعت صربيا معاهدة صلح مع تركيا بينما واصلت بلاد الجبل الاسود الصغيرة النضال وحدها •

والحق أن الصرب وروسيا كانتا تعملان على خدمة مصالحهما قبل كل شيء فالصرب ترغب فى الاستقلال الكامل وربما تطمح الى توسيع ممتلكاتها ، وروسيا تهتم قبل كل شيء بالسيطرة على صقالبة البلقان وبالاشراف على المضايق واسترجاع بساربيا التى ضمها مؤتمر باريس الى ولايتى الدانوب •

ورفضت تركيا ، بتحريض من بريطانيا ، اقتراح روسيا التسوية السلمية للنزاع وكانت سياسة روسيا فى أول الأمر ترمى الى التدخل مع ألمانيا والنمسا لاقناع الباب العالى بضرورة اتخـــاذ الاجراءات الحاسمة لاعادة الطمأنينة الى المناطق الثائرة ولكن الأمور تشعبت ورأت فرنسا ألا يقتصر التدخل على الدول الثلاث الســابقة • بينما رأت بريطانيا التدخل بقوة لمنع تفوق النفوذ الروسى• وأخذ السفير الروسى فى استانبول « اجناتيف » على عاتقه عرقلة الأمور حتى تستفحل الثورة فى البلقان ، وكان يهمه مقاومة النفوذ بين النمسوى والبريطانى والعمل على تفوق نفوذ روسيا بينما القيصر الروسى يرى ألا تقدم روسيا على أية خطوة دون موافقة النمسا خاصة بعد أن أعلن بسمارك لروسيا انه موافق سلفا على كل أمر تتفق عليه النمسا وروسيا بخصوص الدولة العثمانية وممتلكاتها •

وأخيرا وفى ابريل (نيسان) ١٨٧٧ اضطرت الحكومة الروسية أن أن تبدأ الحرب اذ أن ترددها كان يعنى استسلامها ويؤدى الى خسارتها لنفوذها بين الشعوب السلافية وفى شهر مايو (ايار) دخلت رومانيا الحرب كذلك ضد تركيا •

ولم تكن روسيا مستعدة لحرب طويلة الأجل • فقـــد مرت فى سبعينات القرن التاسع عشر بتغيرات داخلية خطيرة شملت حياة البلاد ونظم الامبراطورية نفسها وخضعت روسيا للعوامل التى خضعت لها دول غرب أوروبا من قبل • كالانقلاب الصناعى ، وانقلاب الاصـــلاح

الخاص بملكية الأرض الى صراع قوى بين اتوقراطية قيصرية مستبدة يؤيدها الجيش والبوليس والكنيسة وبين نوع من الاشتراكية المتأثرة بأراء كارل ماركس • واستمر ذلك الصراع حتى ثورة ١٩١٧ •

وعند دخولها الحرب عـام ١٨٧٧ كان وضعها المالى متدهـورا والتدريبات العسكرية متخلفة فى نواح كثيرة وعارضت أكثرية القيادة العليا التى تربت فى ظروف حكم نيقولا ، تطبيق التكنيك الحديث • ولكن الروح القتالية فى الجيش الروسى كانت عالية بسبب عطفهم على اشقائهم السلاف ورغبتهم فى مساعدتهم من أجل التخلص من الأتراك[٣٩] • كما كانت لدى القيصر رغبة ملحة فى دخول الحرب منتهزا قيام الثورة فى البوسنة والهرسك والصرب رغم ان وزراءه نصحوه بأن هذه الحرب ستضعف البلاد ماليا ولن تجنى منها مغنما ولكن القيصر كان يرى ضرورة شغل الرأى العام الروسى عن مناقشة المسائل الداخلية بقضية خارجية•

أما الجيش التـركى فكان مسلحا بأحـدث الأسلحة البريطانية والالمانية وان كانت تدريباته العسكرية غير كافية وكانت القيادة التركية تتبع التكنيك الدفاعى • وفى الوقت الذى كانت فيه الأمور مثيرة للقلق فى استانبول عزل الدستوريون عبد العزيز وأحلوا محله مراد ، ورأس مدحت الوزارة وكان هذا التطور فى الدولة العثمانية مؤذنا بالقضاء على النفوذ الروسى فى استانبول وعلى نشاطات « اجناتيف » الأمر الذى دفع روسيا الى اتخاذ سياسة ايجابية تجاه الدولة العثمانية •

وزاد الحال سوءا قيام الثورة فى بلغاريا ورأى الترك فيها أصابع الروس واضحة وتلا قيام الثورة فى بلغاريا اعلان الصرب والجبـل الاسود الحرب على تركيا • ورأت روسيا فى هذا الموقف فرصتها ، فسارعت واتفقت مع النمسا على توزيع الغنائم ، ولذا عقدت معهـا اتفاقية « رشستادت Reichstadt » وفيها اتفق الطرفان على مبدأ

---

(٣٩) بيفانوف : المرجع السابق ص ٣٩٩ .

عدم التدخل • فاذا انتصر العثمانيون على الصرب يجب التدخل لمنع العثمانيين من الانتقام وحرمانهم من ثمرة النصر • واذا انتصرت الصرب تتدخل الدولتان فتأخذ روسيا بسارابيا من رومانيا وتحتل النمسا البوسنة والهرسك وفى حالة انهيار الدولة العثمانية تصبح استانبول مدينة حرة ويحتل الاغريق بقية الأجزاء الاغريقية (٤٠) •

ودخلت الصرب الحرب ضد تركيا واثقة من مساعدة روسيا وكان قد تطوع فى الجيش الصربى عدد غير قليل من الضباط الروس وثار الشعور القومى فى البلقان مطالبا روسيا بمساعدة صقالبة البلقان مساعدة فعلية • ودخلت الصرب الحرب رغم تحذير النمسا وفرنسا وبريطانيا • وفشلت فى الحرب فشلا ذريعا ، فكان ذلك مدعاة لتدخل روسى فعلا لمناصرة فكرة الجامعة الصقلية خاصة عندما اصبحت بلغراد نفسها (عاصمة الصرب) فى خطر • ولذا أسرعت روسيا باقتراح هدنة وعقد مؤتمر من الدول ولكن الترك العنصريين ابوا حتى تقدم الصرب شروط الصلح التى يرضونها • وكانت روسيا ترغب فى هدنة طويلة تسترد فيها الصرب أنفاسها وتلم قواها بينما الدول الأخرى تريدها قصيرة ، واختلفت الآراء بين الدول • وكان بسمارك يخشى قيام حرب أوروبية تضطر بلاده للاشتراك فيها ولذا بدأ يهتم بالمسألة الشرقية ، وما يتفرع عنها مسألة الشعوب الاسلامية الخاضعة لتركيا ، مسألة مصر وسورية وتونس وطرابلس (ليبيا) •

ورأى أن توافق بريطانيا على تفوق النفوذ الروسى فى شرق البلقان فى نظير أن تضم بريطانيا مصر بالاتفاق مع فرنسا وظل هذا هو رأى المستشار الألمانى من ١٨٧٧—١٨٨١ وكان يعمل على ايجاد جو من التعاون بين الدولتين خارج حدود القارة الأوروبية وعلى حساب الدولة العثمانية • ورأى بسمارك انه اذا تخوفت الحكومة البريطانية

---

(٤٠) صفوت : مؤتمر برلين ص ١٦ •

من مناواة فرنسا لهذه السياسة فعلى لندن أن تبحث مع باريس أمر تقسيم الشرق الأدنى الى مناطق نفوذ فتوافق بريطانيا على تفوق النفوذ الفرنسى فى سوريا نظير موافقة فرنسا على تفوق النفوذ البريطانى فى مصر .

لكن دزرائيلى رئيس حكومة المحافظين فى ذلك الوقت كان لا يرى فى احتلال مصر وسيلة ناجحة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى ، ويرى انه اذا أخذ الروس استانبول فبامكانهم فى أى وقت الوصول الى سوريا ثم وادى النيل . فالآستانة لا مصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الى الهند(٤١) .

وجرت العمليات الحربية على مسرحين : فى البلقان وفى ما وراء القوقاز وهدفت خطة القيادة الروسية الى عبور نهر الدانوب واجتياز البلقان بهجوم خاطف ثم التوجه نحو العاصمة التركية . وقد أملت القيادة التركية أن تمنع اجتياز القوات الروسية لنهر الدانوب معتمدة على حصونها لكن هذه الحسابات لم تتحقق واجتازت القوات الروسية نهر الدانوب بنجاح فى صيف ١٨٧٧ واحتلت بسرعة عاصمة بلغاريا القديمة مدينة « تيرنوف » وقد استقبل البلغار الروس بحماس كمنقذين وقدموا لهم المساعدات وتكبدت القوات الروسية خسائر كبيرة فى الحرب أمام الاتراك ولكن الروس استطاعوا فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٧٧ أن يستولوا على « بليفنا » فى شمال بلغاريا بعد أن استسلمت حاميتها التركية وعددها ٤٠ ألف شخص والتى أثار سقوطها انتعاشا فى حركة الثورة السلافية فدخلت صربيا الحرب من جديد وانهكت قوى الاتراك وتقدمت القوات الروسية وانتصرت على الاتراك فى عدد من المعارك واستولت على مدينة صوفيا .

---

(٤١) صفوت : نفس المرجع ص ١٦ .

وفى شهر يناير (كانون الثانى) ١٨٧٨ بدأ الهجوم العام للقوات الروسية حتى أجلى الاتراك عن مدينة « أدرنة » وأصبح الطريق نحو استانبول مفتوحا • وطلبت تركيا الصلح وكانت العمليات الحربية قد جرت بنجاح كذلك فى القوقاز حيث سقط بأيدى الروس حصون بايزيد واردهان وقرص[٤٢] •

لقد أثار انهيار تركيا قلق بريطانيا والنمسا ــ المجر • فوجهت بريطانيا اسطولها الى بحر مرمرة وهددت روسيا بقطع العلاقات الدبلوماسية اذا تجرأت واحتلت القسطنطينية •

ولقد كانت الحكومة البريطانية ــ والتى تظاهرت بأنها غير راغبة فى احتلال مصر فى ذلك الوقت ــ حريصة على ألا تمتد الحرب الى ثارت فى البلقان الى مصر فلقد راجت شائعات تقول ان روسيا تنوى ادخال مصر فى غمرة الحرب ، فهى تنوى محاصرة الشواطىء المصرية باسطولها وهى تنوى أخذ أرمينيا كذلك • ولذا قدم وزير خارجية بريطانيا « داربى » الى « شوفالوف Shuvalov » السفير الروسى فى لندن مذكرة تؤكد أن مصالح بريطانيا ستضطرها للدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة فى قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم على مصر • واستفسرت الحكومة البريطانية من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة مصر أم لا وبينت فى نفس الوقت أن أى عمل حربى يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره بريطانيا عملا عدائيا ، ولم يهدأ بال بريطانيا الا حين علمت أن هذه الشائعات عارية عن الصحة • كما ان روسيا أثناء الحرب الروسية ــ التركية أعلنت عن رغبتها فى ارضاء بريطانيا بانها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل[٤٣] •

---

(٤٢) نفس المرجع ص ٢٧ ولمزيد من التفصيلات يراجع يفانوف : المرجع السابق .

(٤٣) ص ٤٠١ وما بعدها .

وقدمت النمسا ــ المجر احتجاجا على استمرار العمليات الحربية وبرز أمام الاوساط الحاكمة فى روسيا شبح حرب « كبيرة » مع الدول الاوروبية ، لم تكن مهيأة لها • وكان الجيش الروسى قد أصيب بخسائر كبيرة وعانى صعوبات فى التموين • فأوقفت القيادة الروسية قواتها فى بلدة « سان ستيفانو » (بالقرب من استانبول) وفى مارس (آذار) ١٨٧٨ وقعت معاهدة صلح سان ستيفانو • وكانت شروط معاهدة الصلح التى وقعت فى سان ستيفانو والتى فرضتها روسيا على تركيا لمصلحة روسيا والشعوب السلافية فتكونت دولة كبيرة مستقلة هى بلغـــاريا واعترفت تركيا باستقلال الجبل الاسود وصربيا • وقد توسعت اراضيها بصورة ملحوظة وتم الاعتراف برومانيا كدولة مستقلة ونالت روسيا الجزء الجنوبى من بسارابيا ومنطقة قرص • وأصبح على تركيا ارضاء الرعايا الروس فى الدولة وان تعترف بحرية المضايق وتغلق البحـــر الاسود فى وقت الحرب أمام أعداء روسيا • وتدفع غرامة حربية قدرها ٢٣٥ مليون جنيه جزءا منها نقدا ، والآخر عن طريق التخلى عن بعض المناطق والمدن مثل بسارابيا الجنوبية ، واردهان وقارص وباطوم وجزء من أرمينية • تم كل ذلك أثناء المفاوضات بين روســـيا وتركيا فى مارس (اذار) ١٨٧٨ •

لكن بريطانيا والنمسا ــ المجر لم يرضيا توطيد روسيا لموقعهـــا فى البلقان وقيام دولة سلافية كبيرة هى بلغاريا • فطلبتا اعادة النظـــر فى شروط معاهدة سان ستيفانو فى مؤتمر أوروبى وهددتا روسيا بالحرب وامتنعت ألمانيا عن تأييد روسيا فاضطرت الأخيرة للموافقة على اعادة النظر فى المعاهدة واتفق على طلب النمسا عقد مؤتمر فى برلين تعرض عليه المعاهدة • وتدخل بسمارك لانقاذ السلام لأن الحرب كانت ستقع بين بريطانيا وروسيا ــ ووافق على عقد مؤتمر ومهد الطريق لمفاوضات بين لندن وبطرسبرج لتعديل معاهدة سان ستيفانو فاعترفت روســـيا بحق النمسا فى احتلال البوسنة والهرسك ، فزالت معارضة النمسا ونفذ

رأى بسمارك فى تقسيم البلقان الى منطقتى نفوذ بين روسيا والنمسا[٤٤] وأما المفاوضات بين بريطانيا وروسيا فقد وضح فيها أن معارضة بريطانيا للمعاهدة كانت تنبع من أمرين : أولهم أن المعاهدة أوجدت دولة بحرية جديدة هى بلغاريا وثانيهما ــ انها وضعت تركيا تحت رحمة روسيا ولذا لابد من انقاص حجم بلغاريا ، وتقوية مركز تركيا فى آسيا ، وقد قبلت روسيا بذلك •

وفى هذه الأثناء عقدت بريطانيا معاهدة سرية دفاعية مع تركيا تحتل بموجبها قبرص (١٨٧٨/٥/٢٦)[٤٥] • وبذا ضمنت بريطانيا سلامة مصالحها الامبراطورية • وكان احتلال قبرص لحفظ التوازن فى أوروبا وفى شرقى البحر المتوسط أمام توسع روسيا فى البلقان والقوقاز وامام رغبة النمسا ــ المجر فى احتلال البوسنة والهرسك • واتخذ البريطانيون من قبرص قاعدة لهم ضد روسيا ومركزا يقفزون منه الى أجزاء أخرى من الامبراطورية العثمانية (مصر ١٨٨٢) كما كانت اتفاقية قبرص هذه تعنى أن بريطانيا تخلت عن سياستها التقليدية وأصبحت لا تمانع فى تقسيم الامبراطورية العثمانية ولكن بشرط ألا يضر ذلك بمصالحها •

وعقد مؤتمر برلين للدول الكبرى برئاسة بسمارك لاعادة النظر فى معاهدة سان ستيفانو فى الظاهر ولكنه فى الواقع كان لتسجيل الاتفاقيات التى تمت بين روسيا وبريطانيا وبين روسيا والنمسا ــ المجر • وكان واضحا عزلة روسيا فى المؤتمر فاضطر الوفد الروسى الى تقديم تنازلات كبيرة وبموجب معاهدة برلين ١٨٧٨ قسمت بلغاريا الى ثلاثة أقسام ونالت بلغاريا الشمالية وحدها الاستقلال ، وانخفضت مساحة الأراضى التى نالتها الجبل الاسود وصربيا ، واعطيت البوسنة والهرسك للنمسا ــ المجر ، وتخلت رومانيا عن بسارابيا التى كانت قد أخذت من روسيا فى معاهدة باريس ١٨٥٦ • ونصت المعاهدة على صيانة

---

(٤٤) صفوت : مؤتمر برلين ص ٣٣ــ٣٤ .
(٤٥) نفس المرجع ص ٤٢ــ٤٣ .

حرية الملاحة فى الدانو بوهى حرية دولية وتنازل الباب العالى عن أراضى : اردهان ، وقارص ، وباطوم لروسيا •

بينما استردت تركيا وادى « آلاكرد » ومدينة بايزيد ، وتنازلت لفارس عن مدينة واقليم « ختر » وتعهد الباب العالى بأن يحقق سريعا الاصلاحات التى تستلزمها حالة ارمينيا وحمايتها من الشركس والكرد • وأعلن الباب العالى رغبته فى منح حرية الاعتقاد الدينى ، ولا يجب أن يقف الاعتقاد الدينى عقبة فى سبيل الحقوق السياسية والدينيـــة وتعترف الدولة بحق القناصل فى حماية رعاياهم(٤٦) •

ويلاحظ فى مواد معاهدة برلين انها حاولت تحقيق وجهة النظـــر البريطانية فى المسألة البلغارية فأصبح قسم منها مستقلا وآخر خاضعا للباب العالى • على أن هذا التقسيم الذى هدفت من ورائه بريطانيا لاضعاف النفوذ الروسى فى بلغاريا لم يدم طويلا • فتتحد أجزاء بلغاريا فى أول أزمة بلقانية كبرى تواجهها استانبول بحيث لم يمضى خمسة وثلاثون عاما الا وقد تكونت دولة بلغاريا الحديثة • ورغم هزيمـــة الصرب فقد أكدت المعاهدة استقلالها بل ضمنت لها بعـــض الأراضى العثمانية ، وبذا وضع الاساس الذى ستقوم عليه دولة يوغوسلافيا الحديثة • كما أكدت استقلال رومانيا والصرب والجبل الاسود • وحاولت الدول قبل كل شىء التوفيق بين مصالح الدول الكبرى فى البلقـــان • فقوى النفوذ الروسى فى شرقى البلقان ونما النفوذ النمســـاوى ـــ المجرى فى غربها ، ورضيت بريطانيا حين وضع حد لاطماع روسيا فى الاشراف على القسطنطينية والمضايق ، ولكن مع هذا فلقد امتد النفوذ الروسى فى آسيا بعد اخضاع القوقاز كلها وأخذ اردهان وباطوم ، وأصبحت روسيا متاخمة لأرمينيا العثمانية • وبذا أصبح فى استطاعة الروس القفز الى آسيا الصغرى نفسها والى شمال الجزيرة (العراق

---

(٤٦) انظر نص المعاهدة فى Hurewitz, op. cit., pp. 187 — 189.

وسوريا) ولكى تواجه انجلترا الموقف وتعيد التوازن أخذت قبرص فى شرقى المتوسط لصالحها ولوقف النفوذ الروسى من أن يمتد الى الشرق الأدنى • ولتحقيق أطماعها فى أملاك الدولة فى المشرق العربى •

والجدير بالذكر انه فى الوقت الذى اهتمت فيه بريطانيا بتأييد شعوب الولايات المسيحية لم تهتم بمصير رعايا الدولة المسلمين •

وكان أثر معاهدة برلين على روسيا انها وجهت اهتمامها للتوسع فى شمال آسيا ووسطها وشرقها حيث أخذت تصطدم بالشعوب الاسيوية الشرقية وبالدولة اليابانية التى ظهرت على مسرح السياسة الاسيوية والعالمية كما أخذت تصطدم بالمصالح الأوروبية والبريطانية والفرنسية فى الصين •

وحافظت المعاهدة على السلام الأوروبى وعملت ألمانيا — حتى يظل لها التفوق فى أوروبا على توجيه أنظار الدول الكبرى الى اتباع سياسة استعمارية فى افريقيا وآسيا على حساب شعوب افريقيا والشعوب العربية والاسلامية وشعوب الهند والشرق الاقصى • فبعد ثلاث سنوات احتلت فرنسا تونس وبعدها بعام احتلت بريطانيا مصر •

وكان من أثار المؤتمر أيضا زيادة اهتمام العثمانيين بأحكام سيطرتهم على الاقطار العربية والاهتمام بفكرة الجامعة الاسلامية (عبد الحميد الثانى) وبالتقارب مع ألمانيا بعد أن تخلت بريطانيا عن سياستها التقليدية للمحافظة على الدولة وعدم الموافقة على تقسيمها بأخذها قبرص وتركتها فرنسا تتحرك نحو تونس ثم تحرك بريطانيا نفسها نحو مصر • فبدأ النفوذ الألمانى يلعب دوره المعروف فى الدولة العثمانية وفى ولاياتها العربية بالذات •

وكان لجوء عبد الحميد للسياسة الاسلامية بهدف استخدام الدين لمقاومة معارضيه فى الداخل ومواجهة أعدائه فى الخارج ورأى فى هذه

السياسة أداة يضمن بها التفاف الوطن العربى بل والاسلامى حول الخلافة العثمانية وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على الأقاليم العربية فى وقت فقدت فيه الدولة اقليمها فى البلقان الواحد تلو الآخر وقصد ضمن ما قصد خارجيا أن يجمع حوله الشعوب الاسلامية الخاضعة للدول الأوروبية ومنها التتر الخاضعين لروسيا(٤٧) .

بعد مؤتمر برلين أصبح واضحا أن التدخل الأوروبى فى الامبراطورية العثمانية فى تزايد مستمر وسيكون نصيب البلاد العربية فى هذا التدخل الاستعمارى كبيرا . ولم تقف روسيا القيصرية بعيدا عن هذا النشاط وان كانت أوضاعها الاقتصادية قد ساءت كثيرا بسبب حربها مع الدولة العثمانية فى ١٨٧٧ — ١٨٧٨ .

وقد كان لهذا أثره فى هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤ ثم فى الثورة التى قامت فيها عام ١٩٠٥ بالاضافة الى الاتجاه الاسيوى الواضح لروسيا بعد مؤتمر برلين .

وبانتهاء مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ كانت بريطانيا قد وضعت يدها على قبرص باتفاق خاص مع تركيا وقد اعطاها هذا مركزا متميزا فى شرقى البحر المتوسط وأصبحت أهدافه فى القفز على مصر أكثر سهولة .

وكانت مصر تعيش أزمة اقتصادية وسياسية وعزل اسماعيل بعد تردى الأوضاع المالية للبلاد نتيجة لتراكم الديون الأجنبية على مصر والتدخل الأجنبى فى شئونها (الانجلو — فرنسى بالدرجة الأولى) .

وعندما قامت بريطانيا وفرنسا فى ١٩ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ بتقديم انذار نهائى الى اسماعيل بالتنازل عن الخديوية وهددته فى حالة عدم الاذعان بالالتجاء الى السلطان لخلعه حظى الانذار بمساندة الدول

---

(٤٧) صفوت : مؤتمر برلين ص ٤٦—٥٠ نص المعاهدة .

الأخرى ومنها روسيا حيث قدم قناصل روسيا وألمانيا ، والنمسا ، وايطاليا « نصيحة » مماثلة لاسماعيل •

كما شاركت روسيا بعد ذلك فى مؤتمر القسطنطينية لعام ١٨٨٢ عندما كانت مصر فى صيف ذلك العام معرضة لخطر تدخل انجليزى حقيقى ورفضت الحكومة الفرنسية فى يناير (كانون الثانى) ١٨٨٢ برئاسة « دى فريسيينيه » خطط التدخل المشترك الأنجلو — فرنسى وذلك ما كانت تنتظره الدبلوماسية البريطانية • ولم يكن بمقدور فرنسا — حيال الاتحاد الثلاثى أن تمضى فى تصعيد الأزمة مع بريطانيا بسبب مصر ، بينما لم تكن راغبة فى ترك بريطانيا تنفرد بالتدخل • ورأت الدوائر الفرنسية ان المخرج من هذا المأزق هو الاحتفاظ باستقلال مصر • ونادت بعقد مؤتمر دولى لتسوية المشاكل الجادة وعرقلة التدخل البريطانى •

وساندت الدول ومنها روسيا مبادرة فرنسا وافتتح المؤتمر فى العاصمة التركية فى ٢٣ يونيو (حزيران) ١٨٨٢ وأسهمت فيه روسيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا • بينما رفضت تركيا الاشتراك فيه لأنها اعتبرته خرقا لحقوق سيادتها وتعهدت الدول المؤتمرة « بعدم السعى فى مصر الى اقتناء الأراضى أيا كان نوعها ولا الحصول على امتيازات ذات ميزات استثنائية وامتيازات تجارية لرعاياها » كما اتخذ قرار بصدد تحاشى أية اجراءات منفردة فى مصر طوال انعقاد المؤتمر • ولكن بريطانيا تحفظت بالتالى : « اذا لم يكن هناك أحوال طوارىء وأبطل هذا التحفظ مفعول القرارات التى أتخذها المؤتمر كما أقدمت بريطانيا لايجاد أحوال طوارىء لتضع الدول أمام الأمر الواقع » •

وأدى نشوب الأعمال العسكرية العدوانية ضد مصر من جانب بريطانيا الى استياء الدول فقامت روسيا وسحبت مندوبيها من مؤتمر القسطنطينية •

وقد قررت فض المؤتمر فى ١٤ أغسطس (آب) ١٨٨٢ بعد أن أصبح واضحا أنه عاجز عن منع التدخل البريطانى المنفرد فى مصر[٤٨] .

وشاركت روسيا فرنسا فى مساندة السلطان العثمانى وطالبتا بجلاء القوات البريطانية عن مصر وقد شجع ذلك السلطان ليرفض الاتفاق البريطانى — التركى لعام ١٨٨٧ . ولكن لم يؤد هذا الى نتيجة واستمرت القوات البريطانية تحتل مصر مع اعلان بريطانيا ان مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية !

كما شاركت روسيا أيضا فى اتفاقية القسطنطينية الخاصة بقناة السويس لعام ١٨٨٨ والموقعة فى ٢٩ أكتوبر (تشرين الأول) من ممثلى روسيا وألمانيا ، وفرنسا ، والنمسا — المجر وايطاليا وأسبانيا ، وتركيا وتحفظت بريطانيا وماطلت حتى تم توقيعه عليها فى عام ١٩٠٤ بعد أن تفاهمت مع فرنسا فيما عرف بالوفاق الودى .

(٥)

روسيا والخليج العربى

شغلت فكرة الزحف الروسى على الخليج العربى وتمركز روسيا فى موانىء على هذا الخليج اذهان كبار الساسة والعسكريين البريطانيين منذ قيام نابليون للتحالف مع قيصر روسيا ضد بريطانيا لتنفيذ خطته فى احتلال الهند . فلقد اعتقد نابليون بأن روسيا تستطيع التعاون مع جيوش فرنسا البرية للسيطرة على ايران وافغانستان ودخول الهند من حدودها الشمالية الغربية فى نفس الوقت الذى يحتل فيه الاسطول

(48) Antonius, George : The Arab Awekening- The Story of the Arab National Movment (London H. Hamilton) 1938 p. 75. Hurewitz, op. cit., pp. 219 — 249.

الفرنسى ميناء بومباى والموانى الهندية الأخـــرى بعد أن يتمركز فى الخليج العربى • ومنذ قيام نابليون بالاتصال مع الروس ومع سلطان مسقط ، وتيبو صاحب أمير ميسور ــ آخر أمراء المسلمين والذى كان يخوض صراعا ضد البريطانيين فى الهند ــ حتى جلاء بريطانيا عن الهند فى عام ١٩٤٧ كانت السياسة البريطانية مشـــغولة بالتفكير فى أحتمال قيام روسيا القيصرية (ثم الاتحاد السوفيتى) بغزو الخليج العربى • وبذلك يخرج الموقف فى الهند من يد بريطانيا وتصبح روسيا سيدة الموقف هناك •

وبعد ظهور الحركة القومية فى الهند أخذ الاستعماريون البريطانيون يهددون السكان فى شبه القارة الهندية بشبح الخطر الروسى ويؤكدون ان من أهداف بقاء بريطانيا فى الهند رغبتها فى حراسة الهنـــد من روســـيا !

وهو أمر غريب بطبيعة الحال أن تهدد دولة مستعمرة للهند فعلا ، سكانها بدولة غـــير مستعمرة لهم ولم يروا لهـــا جنـــودا على أرضهم من قبـــل !

أما بالنسبة لوجهة النظر الروسية فقد كانت فكرة الروس الاتصال بالخليج العربى فكرة واقعية هدف اليها التحالف الروسى ــ الفرنسى غير أن الأحداث السياسية والعسكرية التى أعقبت الحرب مع اليابان قضت على آمال روسيا فى الوصول الى مياه الخليج العربى •

وقد بحثت مسائل الهجوم والدفاع على الخليج العربى بتقارير السياسيين والعسكريين لمختلف الدول ومن الذين ناقشوا أهمية الخليج العربى البحرية والعسكرية من البريطانيين « الاميرال لو Low » فى كتابه « تاريخ البحرية الهندية » وكذلك العسكرى « ماك كريجوت Mac Cregot » الذى وضع دراسة استراتيجية للدفاع عن الهند فى كتاب أصدره عام ١٨٨٥ • أما فى الولايات المتحدة الامريكية فقد تطرق

« الاميرال ماهان » الى موضوع الخليج العربى فى الصراع البريطانى ــ الروسى فى مقالته عن الخليج العربى والعلاقات الدولية التى نشرتها مجلة National Review البريطانية عام ١٩٠٢ ثم أصدر كتابه عن « مشكلة آسيا وتأثيرها على السياسة الدولية » عام ١٩٠٣ محـــذرا بريطانيا من الخطر الروسى على الخليج العربى وايران وقال بأن الخطر الروسى ليس عسكريا فحسب بل يتمثل فى استعمارها الاقتصـــادى لمنطقة الشرق الأدنى ومشاريعها لربط البحر المتوسط بالخليج العربى بواسطة سكة حديد • وقال بأن روسيا ستتوسع فى بلاد العرب وستهدد الاحتلال البريطانى لمصر اذا استولت على الخليج ورأى ماهان أن وجود دول مستقلة قوية فى افغانستان وايران وتركيا تحترم الدول الأوروبية حيادها أمر كفيل بحل مشكلة القلق الذى يسيطر على أفكار الســياسة البريطانية عن مستقبل النفوذ البريطانى فى الهند والخليج العربى [٤٩] •

ووضح كيزرن السياسة التى يجب أن تتبعها بريطانيا فى ايران والخليج العربى وركز على تأكيد التعاون بين حكومة الهند وحكومة لندن فى تحليل مطول فى سبتمبر (ايلول) عام ١٨٩٩ • وتحدث طويلا عن أيدى روسيا الخفية والقوية فى شمال ايران وحث بريطانيا على أن تتحرك بقوة أكبر قبل أن تصبح روسيا أكبر قوة فى وسط آسيا وتقترب من مناطق عديدة وهامة قرب حدود الهند من خلال نفوذها فى ايران وافغانستان خاصة وان بامــكان بريطانيا التأثير فى ســياسة تركيا وافغانستان الخارجية • كما حذر كيرزن من امكانية روسيا لتحويل بحر قزوين الى بحيرة روسية •

ورأى ان بريطانيا عليها أن تقابل ذلك النشاط الروسى بجعــل جنوب ووسط ايران منطقة نفوذ بريطانية • وأن سيستان ، وبلوخستان لهما أهمية خاصة بالنسبة للحفاظ على المصــالح البريطــانية فى الخليج العربى •

---

(٤٩) لوتسكى : المرجع السابق : ص ٢٦٧ــ٢٧١ .

وفى استعراضه للوضع فى الخليج العربى تحـدث كيرزن عن تبعيات مناطق مختلفة مؤكدا على أهميـة استمرار يد بلاده قوية فى المشيخات العربية التى تم توقيع اتفاقيات بينها وبين بريطانيا لمواجهة نشاط روسيا نحو جنوب ايران (خاصة سيستان) ومن ثم نحو الخليج العربى •

ولم يحاول كيرزن أن يساوم مع روسيا مطلقا فيما يتعلق بشـئون الخليج ، وقال فى مذكرة سرية أرسلها الى وزير الهند بانه لا يعتقـد ان بالامكان تقسيم الخليج العربى الى منطقتى نفوذ روسية فى الشرق وبريطانية فى الغرب ولا يمكن التنازل عن بندر عباس أو المحمرة لروسيا وليس باستطاعة حكومة الهند التنازل عن مشروع نهر الكرون [٥٠] •

وقد درست جميع الاحتمالات فى حالة حرب مع روسيا فى منطقة الشرق الأدنى وتأثيرها على منطقة الخليج العربى بالذات • وقد قامت وزارة الحربية البريطانية بدراسة امكانية ارسال قوات عسكرية الى شمال الخليج العربى ثم عبر دجلة والفرات فى حالة حرب مع روسيا وذلك ضد أى تقدم روسى فى شرق الاناضول أو فى شمال ايران •

وكانت روسيا لو استطاعت السيطرة على الممرات المؤدية الى جبال كردستان يمكنها أن تستولى على الموصل واذا تم لها ذلك أصبحت سيدة الموقف فى الجزيرة وأصبح سهل الرافدين مفتوحا أمام جيوشها وهو ما يؤدى الى الوصول الى الخليج العربى •

ومن ناحية أخرى كانت روسيا مهتمة بباطوم على اعتبار انهـا الميناء الوحيد فى القسم الجنوبى الشرقى من البحر الأسود والميـناء الطبيعى لمقاطعات روسيا فى القوقاز ونهاية سكة حديد أرمينيا التى توصل

---

(٥٠) محمود على الداود (الدكتور) : الخليج العربى والعلاقات الدولية ج ١ (معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة) ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

البحر الاسود ببحر قزوين • وكانت الدوائر العسكرية الروسية تعتقد أن احتلال باطوم معناه وقوع استانبول الواقعة على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب فى يدها وبذلك تصبح الاناضول ، معقل آسيا التركية ، والتى تضم منابع دجلة والفرات ، منطقة هجوم على سهول العراق المؤدية الى الخليج العربى •

وبعد أن يئس الروس من التغلغل فى الأناضول اتجهوا الى افغانستان وايران •

وقد ذكرت وثائق وزارة الحربية البريطانية للفترة من ١٨٩٠ — ١٩١٤ بأنه اذا نشبت حرب مع روسيا فعلى الاسطول البريطانى فى المحيط الهندى أن يتوجه الى بندر عباس وبوشهر وينزل قوات عسكرية لاحتلال ايران عن طريق الاستيلاء على المحمرة وعربستان أولا لاهميتها الاقتصادية ثم احتلال كرمنشاه لوقوعها على طريق العراق • أما فى حالة الهجوم الروسى فتعمل حكومة الهند على تزويد ايران فورا بالاسلحة والضباط والأموال لعرقلة التقدم الروسى مدة تكفى لوصول امدادات جديدة الى الأسطول البريطانى فى الخليج العربى ورأت الدوائر البريطانية انه بالامكان الاستفادة من شجاعة عرب المحمرة وعربستان وكذلك الاستفادة من سهول الكارون الخصبة للمجهود الحربى[٥١] •

ومن ناحية أخرى كان بعض رجال الاستراتيجية الروسية يؤمنون بأن مصلحة روسيا مرتبطة بنقل الحرب مع بريطانيا الى الخليج العربى حيث تستطيع القوات الروسية أن تحتل موقعا مهما بالنسبة لطرق المواصلات البريطانية عبر المحيط الهندى • وكان هؤلاء يعتقدون بأن مصلحة روسيا البحرية فى المحيط الهادى وبحر البلطيق تقتضى التمركز فى الخليج •

---

(٥١) نص التقرير فى :

Hurewitz, Op. cit., P. 219

وكان احتمال قيام روسيا باستعمال ميناء مسقط للتزود منه بالفحم الحجرى قد أقلق بريطانيا • وبالنسبة الى الخليج العربى بالذات فقد كانت بريطانيا تخشى أن تقوم روسيا فى حالة امتلاكها مراكز ذات ميزات استراتيجية لاغراض جعلها قواعد للفحم البحـــرى بوضع ضـــغطها السياسى على شيوخ الخليج العربى ، واقناعهم بالتوقيع على معاهدات سياسية تعطى معنى الحماية • وفعلا اتصل الروس بالشيخ مبارك شيخ الكويت ، كما اتصـــلوا بعبد العزيز آل سعود ، وذلك خلال سنة ١٩٠٢ وحاولوا اقناعهم بأهمية التعاون مع روســـيا وفرنســـا • ولكن الأميران العربيان رفضا الدخول فى أية علاقات مع حكومة القيصر •

وكانت سياسة القيصرية الروسية فى تركيا وايران وافغانستان والصين تهدف الى الاحتلال والى ضم المناطق المحتلة الى روسيا لتكون تابعة لها كما حدث بالنسبة لتركستان وكانت هذه السياسة تعتمد كذلك على طرق مواصلات واسعة تربط هذه الأجزاء بعضها ببعـــض تحت اشراف روسيا المباشر • وكان البريطانيون يعترفون بمقدرة روســـــيا على تنفيذ مشاريع سكك الحديد عبر ايران الى الخليج العربى • ولكنهم كانوا مطمئنين الى الأفضلية البحرية التى تملكها بريطانيا فى الخليج والتى تمكنها من فرض الشروط على حكومة الشام ومن الدفاع عن الوضع الدولى القـــائم فى الخليج ضد أى اطمـــاع روسية أو فرنســـية أو ألمانية(٥٢) •

واتهمت روسيا بريطانيا بخرق اتفاقية برلين لعام ١٨٧٨ عندما عقدت اتفاقا سريا مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ الذى كان تحت ظـــل السيادة التركية •

وفى ١٢ مارس (اذار) زار الطراد الروسى « جلياك Gilayak » الخليج العربى وقد صرح قائده بأنه لاينوى احتلال أى ميناء فى الخليج

---

(٥٢) محمود على الداود : المرجع السابق ص ١٥٤—١٥٦ .

وأن زيارته لبندر عباس لا علاقة لها بالحصـــول على محطة للفحـــم الحجرى • وكان القنصل الروسى فى بغداد على ظهر الطراد فى رحلته فى الخليج الذى طلب من الكونت « دى وبت » فتح خط بحـــرى للبواخر بين الموانىء الروسية والخليج العربى وتأسيس بنك روسى فى احدى موانىء الخليج واقامة محطة فحم فى بوشهر وابقـــاء طراد روسى وبصورة دائمة فى مياه الخليج العربى على أن يكون بندر عباس مقرا له • وفى ٢١ مارس (اذار) ١٩٠١ زار الامير الروسى « داييجه Dabiji » القنصل الروسى العام فى اصفهان ميناء بوشـــهر ، واجتمع مع العقيد كامبل المقيم البريطانى هناك وأخبره بتوقيع وصول الباخرة الروسية « كورنيلوف Korniloff » من أوديسا بعد زيارتها لمسقط وجسك وبندر عباس وطنجة ، وقد زار قائدها سلطان مســـقط برفقة القنصل الفرنسى فى المدينة ••• وقد عارض اللورد هاملتون فكرة اعطاء بندر عباس للروس بشدة وصرح بأنه على استعداد لاعطائهم ميناء أقل أهمية خشية وقوع حرب عامة بين الطرفين •

وقد كتبت احدى الصحف الروسية «st. Petersburg Zietung بتاريخ ١٨ ابريل (نيسان) عام ١٩٠٠ مقالة عن بندر عباس قالت فيها : ان حكومة القيصر على استعداد للعمل على مسالمة الانجليز فى الخليج شريطة أن يترك الانجليز ادعاءاتهم الخاصة بأن حدود الهند تنتهى فى العراق والكويت وقالت الصحيفة بأن فى آسيا متسعا للأستعماريين الروس والانجليز »(٥٣) •

ومما تجدر الاشارة اليه أن روسيا كانت قد دخلت فى مجـــال النشاط الذى قام حول اقامة سكك حديدية فى الأراضى العثمانية فقد كان هناك عدد من المصالح المالية الروسية التى يرأسها «الكونت كابست» عم سفير القيصر الروسى فى فينا ، قد أخذت تدرس امكانية تحقيق مشروع يقضى بمد سكة حديدية من طرابلس على البحر المتوسط الى

---

(٥٣) نفس المرجع ص ١٦١—١٦٣ •

الكويت على الخليج العربى عبر الصحراء على أن يربط بالعراق بواسطة طريق فرعى يمتد نحو كربلاء .. غير أن مشروعا شبه خيالى كهذا المشروع بمد خط سكة حديدية عبر الصحراء الشاسعة كان مصيره ألا يرى النور خصوصا وان روسيا لم يكن لديها الوسائل المالية أو الفنية التى تمكنها من انجاز مثل هذا المشروع(٥٤) .

وعندما ظهر مشروع سكة حديد بغداد الألمانى بدأت غيوم المعارضة الروسية للمشروع تتجمع فى الافق كرد فعل على زيادة النفوذ الألمانى فى الامبراطورية العثمانية ، ففى ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٦ اتخذ مجلس الوزراء الروسى قرارا بضم المضايق الى روسيا فى أقرب فرصة سانحة وفى ٩ كانون الأول وقع قيصر روسيا على القرار المذكور وكان القرار جريئا وصريحا . وبالرغم من الاعلان عن بطلان القرار بعد فترة من الزمن من اصداره ، فان محتوياته كانت لها أهميتها الواضحة ، اذ جاءت تلك المحتويات معبرة عن الرغبات والخطط الحقيقية لروسيا فى تلك المنطقة ولم يكن مستغربا أن تظهر روسيا معارضتها للخطط والمشاريع الألمانية فى الامبراطورية العثمانية ، فبعد الاعلان عن امتياز بناء ميناء حيدر باشا أبلغ السفير الروسى فى المانيا وزير خارجيتها بأن امتياز حيدر باشا من شأنه اقلاق الحكومة الروسية لأنها تعتبر الميناء أمرا ضروريا بالنسبة لها .

ورد « الهرفون بيلو » وزير الخارجية الألمانى بأن ألمانيا تتبع فى تركيا سياسة اقتصادية بحتة وليس فى نيتها الوقوف أمام روسيا هناك . وفى نفس الوقت أبلغ سفير روسيا فى استانبول السفير الألمانى هناك ان هناك احتمالات فى أن تؤدى زيادة المصالح التجارية الألمانية فى تركيا الى اثارة المصالح السياسية الروسية الأمر الذى يؤدى الى صدام بين الدولتين .

---

(٥٤) نفس المرجع ص ١٧٣ .

ويبدو ان روسيا كانت فى ذلك الوقت تسعى للتفاهم مع ألمانيا حول آسيا الصغرى بل ومن المحتمل انها كانت تتوقع الحصول على تأييد ألمانيا للاطماع الروسية فى شمال وشرق تركيا مقابل اعطاء تأييدها للسياسة الألمانية الخاصة بسكة حديد بغداد وقد شعر الدبلوماسيون الألمان بأن فى ذلك الأمر فرصة قوية لعزل فرنسا(٥٥) .

ويلاحظ أن الروس كانوا قد عارضوا مشاريع الألمان لربط الامبراطورية العثمانية وخاصة فى آسيا الصغرى بسكك حديد — لعوامل استراتيجية وليس لعوامل اقتصادية منذ مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر . وبدأ الروس بحملة قوية ضد العلاقات الألمانية التركية وخاصة بعد أن فشلت الحكومة الروسية فى اقناع ألمانيا بوجوب التفاهم مع فرنسا حول مشاريع السكك الحديدية واتهمتها باستعمار العراق وسوريا ولكن الألمان لم يهتموا بالمعارضة الروسية وذلك لأن العلاقات الدولية كانت متأزمة بين بريطانيا من جهة وبين فرنسا وروسيا من جهة أخرى . وكانت الاتفاقية البريطانية السرية مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ موجهة ضد الخطر الروسى . وان أصبحت بعد ذلك موضوعا مهما فى العلاقات الألمانية البريطانية فى المنطقة . وبعد ظهور المشروع الألمانى الخاص بسكة حديد بغداد ازدادت اهتمامات الروس بالخليج العربى وطرحت مشاريع عديدة على بساط البحث فى الصحافة الروسية متحدثة عن أهمية حصول روسيا على ميناء على الخليج وكانت الاشارة الى أحد ميناءين هما بندر عباس أو شاهبور Chahbar ولكن بريطانيا كانت مهتمة بهما كما أن الميناء الثانى ما كن يحقق الاهداف الروسية .

وكان أمام روسيا امكانية اختيار ميناء على الخليج دون أن يكون مرتبطا بخط حديدى بالداخل وهو ما رأته الدوائر الروسية غير مفيد

---

(٥٥) لؤى بحرى (الدكتور) : سكة حديد بغداد (شركة الطبع والنشر الأهلية — بغداد ١٩٦٧) ص ١٨—١٩ .

ذلك أن البحرية الروسية ــ كانت راغبة فى الحصول على ميناء بندر عباس ولكن البريطانيين كانوا يرون أن هذا سيرتبط بولاية سيستان مفتاح شمال الخليج[٥٦] • وهو ما يرفضوه •

ومع السنوات الأولى من القرن العشرين كانت الدوائر البريطانية ترى امكانية الاتفاق على مناطق النفوذ فى ايران مع روسيا وكان كتشنر القائد الأعلى للقوات المسلحة فى الهند يحذر (١٩٠٦) من السماح للروس بنشاط فى البحر العربى • أو اعطائهم ميناء فى شمال الخليج وان الأفضل تقسيم فارس بحيث تبقى روسيا بعيدة عن الخليج ، ورأى نيكولسن القائد العام للمخابرات العسكرية البريطانية أن يؤخذ بعين الاعتبار فى الاتفاقيات مع روسيا حول ايران بأن تبقى روسيا على مسافة كافية من الحدود البريطانية وفيما يخص الخليج يجب التأكيد على تفوق النفوذ البريطانى دائما عليه[٥٧] • وأصبحنا نرى تزايدا فى المعارضة الروسية والبريطانية لسكة حديد بغداد بعد الاتفاق الذى تم بين روسيا وبريطانيا حول تقسيم ايران سنة ١٩٠٧ وأصبح هذا الموضوع عاملاً مهما فى ابعاد تصاعد الخلاف بين ألمانيا وبين التحالف الروسى ــ الفرنسى ــ البريطانى • وكانت روسيا باتفاقها مع بريطانيا قد اعترفت بمنطقة الخليج العربى كمنطقة نفوذ بريطانية دون منازع وبأفضلية بريطانيا فى جنوب ايران وعربستان فى حين أصبح شمال ايران منطقة نفوذ روسية[٥٨] •

لكن روسيا ما لبثت أن أوقفت معارضتها لمشروع سكة حديد بغداد بعد عقد الاجتماع بين قيصر روسيا وقيصر ألمانيا ، أثناء زيارة

---

(٥٦) نفس المرجع ص ٤٢ــ٤٣ •

(57) Briton Cooper : Britain and the Persion Gulf 1894 — 1914 (Untvof California Press Berkelay and Last Angeles 1967) p. 119.

(58) Ibid, pp. 307 — 309, 362.

الأول للثانى فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٠ حيث جرت مباحثات فى بوتسدام أدت الى عقد اتفاقية بوتسدام بشأن سكة حديد بغـداد والمصالح الروسية فى ايران فى ١٩ أغسطس (آب) ١٩١١ حيث تعهدت روسيا بألا تضع العراقيل أمام بناء هذا الخط الحديدى فى حين تعهدت ألمانيا بالابتعاد بالخط عن الأناضول فى سوريا والعـراق • واعترفت بادعاءات روسيا فى ايران[٥٩] •

وباتفاق ١٩٠٧ بين الروس والبريطانيين واتفاق بوتسدام ١٩١١ بين الروس والألمان تكون روسيا قد قنعت بتركيز نفوذها فى شـمال ايران على أن تبتعد ألمانيا بسكة حديد بغداد عن المناطق القريبة من الحدود الروسية مع تركيا فى الأناضول •

ومن الواضح أن اتفاق ١٩٠٧ قد ترك النفوذ فى الخليج العربى بالكامل لبريطانيا وتراجعت روسيا عن تحركاتها السابقة نحو الخليج العـربى •

(٦)

روسيا وانقسام الأملاك العثمانية

قبيل الحرب الأولى وابانها

ومما تجدر الاشارة اليه انه فى الربع الأخير من القـرن ١٩ كانت مناطق نفوذ ثلاث من الدول الأوروبية الكبرى قد ارتسـمت بخطوط واضحة فأصبحت الولايات الشرقية من الأناضول منطقة نفوذ روسية ، وسوريا منطقة نفوذ فرنسيا ، العراق منطقة نفوذ بريطانيا ، وفيما يتعلق بروسيا فقد كانت تهتم بالولايات الشرقية اهتماما بالغا ، لأنها كانت متأخمة لبلادها ومتصلة جغرافيا بها بشكل مباشر ، فضلا عن أنه كان بين سكان تلك الولايات جماعات كبيرة من الأرمن • والواقـع

---

(٥٩) انظر نص الاتفا ق: Hurewitz, op. cit., pp. 265 — 267.

أن روسيا لم تكن قد أقامت هناك مؤسسات اقتصادية أو ثقافية تكسب لها النفوذ المادى والمعنوى ، الا أنها عملت على منع الدول الأخرى من اكتساب نفوذ لها فيها • وحصلت الحكومة الروسية من الحكومة العثمانية على وعد خطى يضمن لروسيا ذلك بصورة صريحة • وجاء ذلك فى كتاب موجه من وزارة الخارجية فى استانبول الى السفارة الروسية بتاريخ ١٩٠٠/٣/٣١ قالت فيه : « تتعهد الحكومة العثمانية أن لا تمنح امتيازات لأية دولة أوروبية لانشاء سكك حديدية فى جهات البحر الاسود — فى المنطقة التى تقع فى شمال وشرق الخط الذى يمتد بين اركلى — انقرة — قيصرية — سيولس — خريوط — ودان • فاما أن تنشىء السكك المذكورة هى بنفسها واما أن تمنح امتيازها الى شركات روسية » • ولما كانت الحكومة العثمانية لا تملك الامكانيات الفنية أو المالية اللازمة لهذه الأعمال فى تلك المناطق الوعرة فأن التعهد فى حقيقته يسلم بأن تكون تلك السكك فى هذه المناطق فى أيدى شركات روسية • وهو ما يعنى أن الولايات الشرقية من الأناضول أصبحت « منطقة مقفلة » دون سائر الدول الأوروبية وتقع فى نفوذ روسيا وحدها[٦٠] •

ولم يتوقف الأمر بالنسبة لروسيا عند هذا الحد فمنذ مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأصابع روسيا تتحرك فى البلقان •

وبعد احتلال ايطاليا لطرابلس واضطرار الدولة العثمانية للاعتراف بالتنازل عن طرابلس وبرقة عام ١٩١٢ زادت أطماع الدول الأوروبية الأخرى •• وبالنسبة لروسيا عرض سفيرها فى الآستانة مشروع تحالف تركى — روسى ، تتعهد بموجبه روسيا بالعمل على التكامل السياسى للدولة العثمانية بينما تقوم تركيا من جانبها بالسماح للسفن الحربية الروسية بالمرور فى المضايق • ولكن بريطانيا وألمانيا عرضت سرا هذا المشروع وحرضت السلطان على رفضه فاستجاب السلطان لتحريضهما •

---

(60) Ibid, pp. 267 — 268.

وكان من نتيجة ذلك أن أخذت سياسة روسيا تتجه أكثر فأكثر الى تكوين حلف بلقانى بزعامة الصرب ، تكون مهمته الأولى العمل على تصفية الممتلكات التركية الباقية فى البلقان ويكون لروسيا النفوذ الأول على هذا الحلف .

وفى مارس (اذار) ١٩١٢ وقعت الصرب وبلغاريا معاهدة سرية للتحالف وفى نفس الوقت دخلت اليونان والجبل الأسود هذه المحالفة ، وبذلك تألف الحلف البلقانى ونشبت الحرب فى البلقان حيث انتصر فيها الحلف على الأتراك . وهنا تدخلت روسيا والنمسا ــ المجر ، فروسيا من جانبها كانت تخشى قيام النمسا بالتوسع فى البلقان لتوازن الانتصارات المتواصلة لحلف البلقان ولا سيما انتصارات الصرب . هذا بينما كانت النمسا تخشى من تحقيق مشروع دولة الصرب الكبرى . وحتى تمنع النمسا وايطاليا خروج دولة الصرب بالى الادرياتيك ، أعلنت اعترافها باستقلال البانيا وخوفا من أن تتطور الحرب البلقانية الى حرب عالمية بتدخل الدول الكبرى اقترحت بريطانيا عقد مؤتمر فى لندن من سفراء النمسا ــ المجر ، ألمانيا ، فرنسا ، وايطاليا وبريطانيا غير أن أعمال المؤتمر توقفت فى يناير (كانون الثانى) ١٩١٣ عندما استولى أنور بك على السلطة بانقلاب فى تركيا واستأنف الحرب فى البلقان غير أن الهزيمة لحقت بتركيا من جديد وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة لندن فى ٣٠ مايو (ايار) ١٩١٣ وفقدت تركيا بموجبها كافة ممتلكاتها باستثناء شريط ضيق يمتد من العاصمة الى خط يسير من اينوس على بحر ايجة الى ميديا على البحر الأسود .

ولكن هذه العاصمة لم توضع موضع التنفيذ بسبب اختلاف دول البلقان على الغنائم وقامت الحرب البلقانية الثانية فى يونيو (حزيران) ١٩١٤ وانتهى الأمر بهزيمة بلغاريا واعلانها الهدنة فى ٣١ يوليو (تموز) ثم وقعت معاهدة بوخارست .

على أية حال فقد تركت حروب البلقان هذه الدولة العثمانية وهى دولة غير أوروبية وأدى ذلك الى نتائج بعيدة المدى أهمها :

١ ــ تركيز الاتراك على ممتلكاتهم فى الولايات العربية بالذات •

٢ ــ ظهور حركات الاصلاح داخل الدولة العثمانية للمحافظة على ما تبقى من الدولة كدولة اسلامية شرقية مثل الجامعة الاسلامية وحركة الأتراك الأحرار •

٣ ــ ظهور الجمعيات العربية التى بدأت تطالب بحقوق العرب القومية فى الولايات العربية(٦١) • بعد أن أخذت سياسة التتريك ابعادا خطيرة •

ولقد أدى انهزام الجيوش العثمانية فى البلقان الى اسراع ساسة أوروبا فى حل الأمور الخاصة بالدولة لأنه أصبح واضحا أن عمرها لن يطول كثيرا لأن الحرب الطرابلسية والبلقانية انهكت العثمانيين الى درجة كبيرة •

واذا كانت الاتفاقيات التى عقدت فى هذه الفترة بين الدولة العثمانية وروسيا لا تعنى البلاد العربية بشكل مباشر الا أن ما حدث فى البلقان ضد الدولة • وكانت روسيا صاحبة اليد الطولى فيه كان من أهم العوامل التى جعلت الدولة تقبل الاتفاق مع الدول الأوروبية الأخرى وجل هذه الاتفاقيات كانت على حساب الولايات العربية وان كان هذا لا ينفى المسئولية العثمانية لأن الدولة استسلمت لاطماع الدول الأوروبية بشكل واضح •

وتجدر الاشارة الى أن الاتفاقيات التى عقدتها الدولة العثمانية

---

(٦١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٢ (بيروت) ص ١٩٤ •

والدول الأوروبية فى هذه الفترة كانت سرية وظلت مكتومة على الرأى العام مدة طويلة والاتراك أنفسهم لم يذيعوها الا سنة ١٩٥١ حيث خصص « يوسف حكمت بابور » أحد مجلدات كتابه عن « تاريخ الانقلاب التركى » لبحث المفاوضات والاتفاقيات مستندا الى محفوظات وزارة الخارجية التركية(٦٢) .

وتمت هذه الاتفاقيات بين الحكومة التركية وبين بريطانيا وفرنسا وألمانيا :

فتم التوقيع على اتفاقيات مع بريطانيا بين يوليو (تموز) ١٩١٣ ، ومارس (اذار) عام ١٩١٤ تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى : قطر ، البحرين ، واعترفت باتفاقيات بريطانيا السابقة مع شيخ الكويت ، وتم اتفاق بخصوص شط العرب وأعطيت بريطانيا امتيازات خاصة ، وآخر بخصوص الملاحة النهرية فى دجلة والفرات تمنح بموجبه الحكومة العثمانية امتيازات لشخص بريطانى ترشحه الحكومة البريطانية لتأسيس شركة تتولى تسيير السفن فى نهر دجلة من القورنة حتى الموصل على الأقل . وفى نهر الفرات من القورنة حتى مسكنة . وتم منح الامتياز الى المورد « اينجة كوت » البريطانى . كما وقعت اتفاقيات مع بريطانيا حول المحميات وحضرموت فى الجنوب العربى تم فيها تحديد حدود بين ولاية اليمن ، وبين عدن والمحميات التسع وتخلت بموجبها الدولة عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى حضرموت .

كما جرت مفاوضات بين الدولة وفرنسا وبين فرنسا وألمانيا لتحديد مناطق نفوذ الدولتين فى آسيا العثمانية خاصة فيما يتعلق بالسكك الحديدية . بالنسبة لفرنسا عقدت معها الدولة اتفاقية خاصة بالسكك الحديدية والموانىء البحرية أعطت بموجبها لفرنسا امتيازات :

---

(٦٢) أنيس ، حراز : المرجع السابق ص ٨٥—٨٧ .

لانشاء مرافىء طرابلس الشام وحيفا ويافا ، ولمد سكة حديدية بين الرياض واللد ، ولمد سكة حديدية تمتد من طرابلس الى يافا عن طريق بيروت ــ حيفــا •

وأعطيت للفرنسيين امتيازات خاصة فى تشــغيل معظم هذه السكك بمديرين ومهندسين فرنسيين بحيث يكون لهم السيطرة عليها •

وهناك اتفاقية خاصة بالمؤسسات الفرنسية فى آسيا العثمانية اعطت امتيازات واسعة للفرنسين وفى نهايتها تعهد عثمانى بان « تعتبر الدولة أهالى تونس وفاس مثل أهالى الجزائر من تبعة فرنسا وان تعاملهم على هذا الأساس » •

وهذا يعنى أن الحكومة العثمانية قد اعترفت بحماية فرنسا على تونس وفاس •

وقد تضمنت هذه الاتفاقيات « اقتسام مناطق النفوذ » فى سوريا بين فرنسا وألمانيا بموافقة الدولة العثمانية •

ولكن روسيا لم تقدم للحكومة العثمانية ، خلال مفاوضات عامى (١٩١٣ ــ ١٩١٤) أى طلب يتصل بالوطن العربى •

وكانت بريطانيا قد صرحت غير مرة ــ على لسان وزير خارجيتها ــ بأنها تعترف بما لفرنسا من مركز ممتاز ومصالح خاصة فى سوريا وانها لا تطمع فى شىء فى سوريا •

وهذا يعنى أن القسمة المذكورة أصبحت متفقا عليها بين جميــع الدول الأوروبية الكبرى وبموافقة الدولة العثمانية فأصبحت ســوريا منطقة نفوذ فرنسية باستثناء حلب التى تركت لألمانيا (وعندما تقــوم الحرب بين البلدين سيؤدى ذلك الى ضم حلب لمنطقة فرنسا) •

وكانت الدولة العثمانية تسعى من وراء ذلك الى عدة أمور أهمها :

(أ) الغاء الامتيازات الأجنبية .

(ب) زيادة الرسوم الجمركية .

(ج) الاستعاضة عن النظام الجمركى المقرر بتعريفة جمركية .

(د) احتكار صنع وبيع بعض المواد .

(هـ) الغاء دوائر البريد الأجنبية .

(و) الحصول على بعض القروض لتسديد العجز فى الميزانية من ناحية وتحويل بعض المشاريع من ناحية أخرى .

وقد وافق الاوروبيون على بعض هذه المطالب وأجلوا البعض الآخر مقابل ما حصلوا عليه من امتيازات(٦٣) .

وواضح أن المفاوضات التى جرت والاتفاقيات التى عقدت كانت قد وضعت « أسس اقتسام آسيا العثمانية » من الوجهتين : « الاقتصادية والسياسية » ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية . انها كانت تقسم الولايات والمتصرفيات العربية التى تمتد بين سواحل الشام وحدود ايران ، الى أربع مناطق نفوذ . خصصت ثلاثا منها لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا والرابعة مشتركة بين بريطانيا وألمانيا .

وجاءت أحداث الحرب العالمية الأولى واتفاقيتها فأقرت ما كان لبريطانيا وفرنسا ونسفت ما كان مقررا لالمانيا وقسمته بين بريطانيا وفرنسا .

ومن هنا يمكن القول أن أسس اقتسام البلاد العربية المذكورة

---

(٦٣) الحصرى : المرجع السابق ص ٢٠٤ .
عرض الحصرى فى كتابه المشار اليه لهذه الاتفاقيات بتفصيل ص ٢٠١—٢٢٣ .

كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية وتمت تحت علم الحكومة العثمانية نفسها[٦٤] .

وفى الثانى من أغسطس (آب) ١٩١٤ وهو اليوم التالى لنشوب الحرب دارت مفاوضات سرية بين ألمانيا وتركيا تمخضت عن عقد معاهدة دفاعية هجومية وكانت بمثابة اتفاق عسكرى يتضمن التزامات من جنب تركيا بالاشتراك فى أية حرب تخوضها روسيا اذ نصت المادة الثانيـــة من الاتفاق على انه « اذا تدخلت روسيا وقامت باتخاذ خطوات عسكرية واضطرت ألمانيا الى الوفاء بالالتزامات التى يفرضها عليها تحالفها مع النمسا فان تركيا ملزمة — فى هذه الحالة بالوفاء بالتزاماتها نحـــو ألمانيا »[٦٥] .

ولقد كان دخول تركيا الحرب الى جانب دول الوسط وضد دول الوفاق على جانب كبير من الأهمية لتأثيره على توازن القـــوى بين الفريقين المتحاربين .

فقد ترتب على دخولها الحرب ان صار على روسيا أن تحارب فى جبهة ثانية الى جانب ميدان الحرب ضد ألمانيا وبذلك يتحول جانب كبير من مجهود روسيا — وكذلك بريطانيا — من ميدان الحرب فى أوروبا . والى جانب ذلك فان تركيا بموقعها الاستراتيجى كان من شأن دخولها الحرب أن يؤثر على سلامة خطوط مواصلات بريطانيا ويفتح الطريق لامتداد النفوذ الالمانى الى ممتلكات بريطانيا الشرقية ولربما أثر على مستقبل الهند ذاتها[٦٦] .

---

(٦٤) نفس المرجع ص ٢٢٧ .

(65) Hurewitz, op. cit., vol II. pp. 1 — 2.

(66) Linczowaki, George : The Middle East in World Affairs 2nd,ed (Cornell univ. Press 1957) pp. 38 — 39.

ومن أشد الأخطار التى كانت تهدد دول الوفاق من جانب تركيا اعلان الجهاد وكان من المؤكد أن تركيا ستلجأ الى سلاح الحرب الدينية بالعمل على اثارة العالم الاسلامى ضد دول الوفاق ، خاصة وان ملايين المسلمين كانوا تحت حكم كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وقد أكدت التقارير الأمريكية أن ملايين من رعايا الدولة المسلمين كانوا يرحبون بالحرب أملا فى القضاء على الخطر الروسى ويؤمنون فى هزيمة روسيا وبريطانيا بالاستعانة بألمانيا • وكانت ألمانيا ترى ان اعلان الحـرب المقدسة سيحشد ضد الانجليز والروس المسلمين ويمكن أن يؤدى ذلك الى ارغام الدولتين على طلب الصلح(٦٧) •

ومن ثم فان دخول روسيا الحرب فى صف الوفاق كان مهما للغاية بالنسبة لبريطانيا وفرنسا •

وفى بداية الحرب ، شعرت الحكومة البريطانية بضرورة ابلاغ الروس عن موافقة لندن على حل مسألة الاستانة والمضايق وفق رغبات روسيا • وبعد استلام هذه المذكرة قدم « سازنوف » وزير خارجية روسيا رسالة فى ٤ مارس (آذار) ١٩١٥ الى السفيرين البريطانى والفرنسى فى بطرسبرج مقترحا عليها تزويده بموافقة خطية على أن تكون المضايق من حق روسيا وتقبل الحلفاء هذا الاقتراح فاعلن سفير فرنسا فى روسيا فى ٨ مارس (آذار) عن موافقة الحكومة الفرنسية على مطالب روسيا لقاء موافقة الأخيرة بالاعتراف بحق فرنسا فى سوريا ولبنان وكيليكيا وكانت روسيا مستعدة للاخذ بهذه المساومة • ومع ذلك تحفظت حول « مطامع الأرمن فى كيليكيا » كما أثارت قضية « الأماكن المقدسة » فى فلسطين أما البريطانيون فتصرفوا بحذر اذ طالبوا بأن يؤخذ بعين الاعتبار مسألة تأسيس دولة اسلامية مستقبلا وبأن تقرر حدودها فيما بعد •

---

(٦٧) محمود حسن منسى (الدكتور) : حركة اليقظة العربية فى الشرق الاسيوى ط ١ (دار الاتحاد العربى للطباعة ــ القاهرة ١٩٧٢) ص ٢٠١ •

وفى ١٠ ابريل (نيسان) ١٩١٥ وقعت اتفاقية بين روسيا وبريطانيا وفرنسا منحت المضايق بموجبها الى روسيا ونظر فى تأليف دولة اسلامية مستقلة فى الجزيرة العربية أما قضية سوريا وفلسطين فبقيت معلقة حيث أجريت مفاوضات اضافية حولها بين انجلترا وفرنسا فى نهاية عام ١٩١٥ وبداية ١٩١٦ • وبمناسبة هجوم الروس على القوقاز فى بداية ١٩١٦ ، أسرع فى انهاء هذه المفاوضات • فوافقت بريطانيا على التنازل لفرنسا من الأراضى الواقعة غرب حلب ــ حماه ــ دمشق وأصر الفرنسيون على اعتبار هذه المنطقة كمستعمرة فرنسية مقبلة وشرقى سوريا كمنطقة نفوذ فرنسية •

وقبيل ذلك قدمت روسيا خطة جديدة لحل القضية العربية ، بعد أن كانت قد تأكدت من وجود نزاع بين جمال باشا والحكومة المركزية فى استانبول وتتلخص هذه الخطة فى الآتى :

يطلب من جمال باشا أن يقطع علاقاته مع الباب العالى وأن يفتح الجبهة للحلفاء • واقتراح لقاء ذلك وضع جمال باشا على رأس سلطنة مستقلة مؤلفة من ست ولايات ذات حكم ذاتى (بضمنها أربعة ولايات عربية) وعلى هذا الأساس اقترح « سازنوف » اجراء مفاوضات سرية مع جمال باشا • الا أن دول الوفاق (فرنسا وبريطانيا بالذات) لم تكن مستعدة اطلاقا للموافقة على هذا المشروع الذى سيقدم البلاد العربية ــ محل اطماع الدولتين ــ لجمال باشا ولهذا أعلنت فرنسا انه لا يمكن تحقيق هذه الخطة الا فى حالة عدم تقديم المناطق التى خصصت لها الى جما لباشا • وقدمت بريطانيا نفس الشرط بخصوص العراق والجزيرة العربية • وترتب على ذلك فشل الخطة الروسية •

وفى مارس (آذار) ١٩١٦ قدم الى العاصمة الروسية المبعوثان الخاصان سايكس عن بريطانيا ، وبيكو عن فرنسا • وفى مجرى المفاوضات التى قاما بها ، وضعت الاتفاقية المعروفة بـ (سايكس ــ

بيكو) والتى تكونت كمذكرات متبادلة بين فرنسا وروسيا (٩ مايو / ايار ١٩١٦) وفرنسا وبريطانيا (١٥ مايو ١٩١٦) ولم يكن لروسيا التى تبادلت المذكرات اللازمة مع بريطانيا فى خريف ١٩١٦ اطماع فى البلاد العربية • ولكن لقاء انضمامها الى الاتفاقية وعدها حلفاؤها بالولايات الارمنية فى تركيا وشمال كردستان وأكدوا « حقها » فى القسطنطينية والمضايق وفى الدفاع عن مصالح الارثوذكس فى فلسطين• فظهرت على الخريطة الى جانب المناطق البريطانية الفرنسية « منطقة صفراء » هى منطقة بحيرة « فان » تختص بها روسيا(٦٨) •

وهكذا فانه لكى تحصل روسيا على اطماعها فى الأراضى التركية الغير عربية ، سلمت بالمقابل لحلفائها (الفرنسيين والبريطانيين) بأطماعهم فى الوطن العربى • وشاركت فى المفاوضات التى انتهت الى اتفاقية سايكس بيكو المعروفة •

وعندما قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ تزايد اتجاه الحكومة التركية نحو الجامعة الطورانية وزاد أمل الأتراك فى تحقيق أحد أهدافهم من الحرب وهو تحرير الجماعات التركية فى روسيا وضمها لتركيا ، وترتب على هذا تركيز الجهد التركى فى الحرب فى عامها الرابع على القوقاز مما أدى الى اهمال الميادين الأخرى للحرب بما فيها الشرق العربى حيث كانت ألمانيا تريد وقف التقدم البريطانى ، ولذلك غضبت القيادة الألمانية لأنها نظرت الى التحرك التركى فى القوقاز عام ١٩١٨ كما لو كان الاتراك قد تخلوا عن تحالفهم مع الألمان ليخوضوا حربا تخدم مصالحهم وحدهم(٦٩) •

---

(٦٨) لوتسكى : المرجع السابق ص ٤٦٠—٤٦٢ وانظر النص فى :
Hurewitz, op. cit., vol. II. pp. 18 — 22.
وانظر كذلك محمود صالح منسى : المرجع السابق ٣٢٥ وما بعدها .

(69) Linczowski op. cit., p. 55.

وفى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩١٧ نشرت الحكومة الروسية المعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية وبضمنها اتفاقية سايكس ــ بيكو • وقد اذيع النص الكامل للاتفاقية ضمن بقية الاتفاقيات السرية عندما نشرت هذا النص جريدتا ازفستيا وبرافدا فى ٢٣ نوفمبر (تشرين الثانى) عقب العثور عليها فى سجلات وزارة الخارجية الروسية • ونشرت بناء على تعليمات تروتسكى « قوميسير » الشئون الخارجية الروسية والذى أعلن فى حديث له أمام اللجنة المركزية للسوفيت فى بتروجراد « ان كل الاتفاقيات السرية قد صارت الآن تحت يدى ، وان بنود هذه الوثائق لاسوأ مما توقعنا ، وسوف نلقى بها فى سلة المهملات[٧٠] •

وأعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا فى أعقاب ذلك بأن الاتفاقية تلفيق عن البلاشفة وكان هذا التصريح لتهدئة العرب وهو تصريح خادع بطبيعة الحال •

كما كان رد فعل الشريف حسين على نشر الروس لهذه الاتفاقية مجرد طلب استفسار من الحكومة البريطانية عن الاتفاقية وسارعت لندن فردت عن طريق ونجت مندوبها فى مصر فى حزيران عام ١٩١٨ مؤكدة ان ما أذاعته موسكو لا يمثل اتفاقية مبرمة فعلا ولكنها محاضر لمحادثات بين فرنسا وبريطانيا وروسيا فى بداية الحرب وقبل الثورة العربية بقصد تجنب اثارة الصعوبات بين الدول المتحالفة فى متابعة الحرب ضد تركيا ••• وان نجاح الثورة العربية وانسحاب روسيا من الحرب قد خلق ظروفا مختلفة تماما[٧١] •

وقبل الشريف هذا التفسير البريطانى • وواضح انه استمرار لخداع العرب •

---

(٧٠) محمود صالح حمنسى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(71) Antenius, op. cit., p. 257.

وكان الرئيس ولسن قد صرح فى الكونجرس بتاريخ ٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ بأنه سيعمل على منح حق تقرير المصير لشعوب الامبراطورية العثمانية .

ومعروف مدى التأثير الذى أحدثه هذا التصريح فى الوطن العربى .. لكن العرب لم يحققوا شيئا من وراء وعود ولسن ووقعت العراق والشام تحت يد بريطانيا وفرنسا تحت اسم الانتداب كما هو معروف أيضا .

خاتمة

من العرض السابق يتضح أن روسيا القيصرية كانت فى مقدمة الدول التى دخلت فى صراع مع الامبراطورية العثمانية استمر منذ عهد بطرس الأول (١٦٨٢–١٧٢٥) حتى سقوط النظام القيصرى سنة ١٩١٧ .

وكانت مناطق هذا الصراع الأراضى الاسيوية من الامبراطورية العثمانية المجاورة لروسيا والقسطنطينية والمضايق والبلقان .

وكان التحرك الروسى ضد الدولة العثمانية يدفع الى تدخل بريطانى يعقبه تحرك أوروبى – لوقف التدخل الروسى ولمنع الروس من تحقيق جل أطماعهم فى ولايات الدولة حفاظا على المصالح الاستعمارية لهذه الدول الأوروبية وعلى التوازن الدولى من وجهة نظرهم . ولكن تحت ستار الحفاظ على سيادة وتمامية أراضى الدولة العثمانية .

ان حروب الروس ضد الدولة العثمانية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أضعفت تلك الدولة كثيرا خاصة حرب القرم ١٨٥٤ – ١٨٥٦ ، وحرب ١٨٧٧ – ١٨٧٨ . ولكنها أضعفت الاقتصاد الروسى والعسكرية الروسية أيضا وهو ما ظهر أثره فى هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٤ ثم من الثورة التى قامت بها عام ١٩٠٥ .

وأخطر ما أصاب العثمانيين من جراء هذه الحروب هو اخراجهم من البلقان تدريجيا والنشاط الروسي في كل ما حدث في البلقان من انتفاضات ضد العثمانيين كان واضحا على امتداد القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين وكان يأتي تارة تحت ستار مساعدة الثوار ثم تحت اسم الجامعة السلافية •

وقد أثر الصراع الروسي ــ العثماني على الوطن العربي كثيرا فجل الوطن العربي كان ابان هذا الصراع تابعا للدولة العثمانية وعلى ولايات الدولة ان تشارك في حروبها ضد الروس وضد ما يحركه الروس في البلقان بالذات وعلى هذه الولايات أيضا أن تدفع حصصها في تعويضات الحرب لروسيا المطلوبة من الدولة العثمانية •

وكلما تقلص سلطان الدولة على الولايات الأوروبية في البلقان تعمل على تقوية سلطانها أكثر في الولايات العربية •

اضافة الى ذلك امتد النشاط الروسي الى مناطق عربية بشكل مباشر بهد فالضغط على الدولة العثمانية لتسلم بمطالب روسية في ميادين غير عربية أو لتسلم بتفوق نفوذ روسيا في الأراضي المقدسة في فلسطين : مثال ذلك ما حدث عن مساندة روسيا لحركة على بك الكبير في مصر وظاهر العمر في فلسطين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وان تراجعت عن هذه المساندة بعد التنازل لروسيا من جانب العثمانيين في مناطق أخرت غير عربية •

ورأينا كيف قامت روسيا بدور بارز في افشال مشروع محمد على لاقامة دولة عربية كبرى : ففي بدء الأزمة التركية ــ المصرية فرضت روسيا نفسها على الباب العالي (معاهدة هنكار اسكلسي) واوقف هذا النصر الدبلوماسي ــ لصالح روسيا عام ١٨٣٢ تقدم القوات المصرية على مشارف استانبول وجاء اسطول القيصر الروسي وجيشه اليها وتمتع

الروس بنفوذ متفوق فى العاصمة العثمانية وبحق اجتياز سفنهم الحربية للمضايق التركية لفترة •

وجر ذلك الى تشدد بريطانى قاد دولا أوروبية أخرى الى اتفـاق ضد محمد على اودى بمشروعه •

ونتيجة لتخوف بريطانيا الدائم من ظهور روسيا بشكل قوى فى البحر المتوسط وفى الخليج العربى وما يترتب على ذلك من اخطـار على الطرق التى توصلها الى الهند لم تتمكن روسيا القيصرية ــ والتى كانت جادة فى العمل للوصول الى هذه البحار ــ من اقامـة علاقات اقتصادية واسعة مع البلاد العربية رغم انها كانت قد أقامت مثل هـذه العلاقات فى القرن التاسع عشر خاصة مع مصر وسوريا وتوسعت فيها بعد افتتاح قناة السويس •

ففى عام ١٩٠١ فتحت شركة للملاحة والتجارة الروسية خطـا ملاحيا منتظما بين « اوديسا » وموانىء الخليج العربى ولكن بريطانيا التى كان لها السيطرة فى الخليج فى ذلك الوقت قررت خنق المزاحمـة الروسية فى التجارة وهى فى مهدها فأسرعت وخفضت شركات الملاحة البريطانية بعد وصول « كورنيلوف » أول سفينة لشركة الملاحة والتجارة الروسية الى البصرة عام ١٩٠١ ــ أجرة النقل البحرى من موانىء أوروبا بنسبة ٧٠٪ ومع ذلك استمرت التجارة الروسية ــ العربية تتطور ولكن ببطء(٧٢) •

وقد شاركت روسيا القيصرية دولا أوروبية أخرى قبيل الحرب العالمية الأولى وابانها من أجل تحقيق أطماعها فى الأراضى العثمانية •

---

(٧٢) بونداريفسكى : سياستان ازاء العالم العربى (دار التقدم ــ موسكو ١٩٧٥) ص ٢٠ــ٢١ •

فمن أجل تحقيق أحلامها فى (القسطنطينية) والمضايق شـــاركت روسيا بريطانيا وفرنسا فى اتفاقية سايكس ــ بيكو ــ وان لم يكن لها اطماع فى الوطن العربى ــ وكان ذلك آخر عمل ساهمت فيه روسيا يمس الوطن العربى •

وتجدر الاشارة الى أن نغمة التخويف بالخطر الروسى على الخليج العربى والهند قد ضربت عليها بريطانيا من القرن التاسع عشر فى وقت كانت فيه السيطرة البريطانية على الخليج قائمة والاستعمار البريطانى فى الهند راسخة اقدامه ولم يكن هنا أو هناك أى أثر لسيطرة روسية أو احتلال روسى •

على أية حال فان خروج روسيا الى البحر المتوسط وظهورها فى مياه الخليج العربى جعل اتصالها بالوطن العربى ميسرا وخدم مصالحها وأخرجها من عزلتها • وبدأت قناصلها تنتشر فى المدن الهامة فى العراق والشام ومصر • وفى القرن التاسع عشر كتب بعضهم عن أقاطر عربية فكتب القنصل الروسى بازيلى (استمر قنصلا لروسيا فى بيروت طوال ١٥ عاما اعتبارا من ١٨٣٩) كتابا عن « سوريا وفلسطين تحت الحكم التركى تاريخيا وسياسيا » وكتب أداموف أول قنصل روسى فى البصرة كتابا باسم « العراق العربى » وكتب غيرهم فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين عن الحضارة العربية وتأريخ العرب من العلماء الروس المشهورين من أمثال « فرين وبولديريف وسانيليف وجريجوريف وسنيكوفســكى ودورن وروزين وميدينــكوف وبارتولد وكريمســكى وكراتشكوفسكى » وتعاون معهم بعض السوريين المصريين مثل الأديب المصرى الشيخ طنطاى الذى قام بتدريس اللغة العربية منذ عام ١٨٤٠

فى القسم الخاص باللغـــات الشرقية فى وزارة الخارجيـــة الروســـية وأصـــبح اعتبـــارا من عام ١٨٤٧ اســـتاذ اللغة العربية فى جامعـــة بطرسبرج[٧٣] .

وهذا يعنى أن هناك علاقات قامت بين روسيا القيصرية والبلاد العربية فى العهد القيصرى وان كانت هذه العلاقات لم تتخط العلاقات القنصلية .

---

(٧٣) بوتداريفسكى : المرجع السابق ص ٢٦٤—٢٦٥ .

(*) فيما يخص مصر والتمثيل القنصلى بينها وبين روسيا ، انظـــر التفصيلات فى فؤاد المرسى : العلاقات المصرية — السوفيتية ١٩٤٣—١٩٥٦ (دار الثقافة الجديدة — القاهرة ١٩٧٦) ص ٢٠—٢١ .